المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثاني عشر بعد المئة

١ ابريل سنة ١٩٤٨ — ٢١ جمادى الاولى سنة ١٣٦٧

التكافل الاشتراكي

نظرية مّا في النظام الاجتماعي

البحث الأول في تحليل النظرية

٤ — استبداد الفرد بالجماعة وغُلاة الرأسماليين (١)

استبداد الفرد بالجماعة رتبة طبيعية من مراتب التطوّر الطبيعي الذي جرى على الجماعات لإنسانية ، غير أنّ أشياء الحياة غير أشياء الطبيعة الجامدة ، فما ننعته بأنه « طبيعي » من شياء الحياة ، يتضمن ولاشكّ عنصراً أصيلاً من عناصر التطوّر يتنقّل بها في مراتب متساوقة ن التغير يتناول الكم والكيف ، على صورة تختلف كل الاختلاف عن مجالي التطور في أشياء لطبيعة الجامدة . فالفرد إن ظلّ أزماناً متطاولة محتلاً تلك المرتبة التطورية التي جعلت ستبداده بالجماعة عنصراً من عناصر التطور ذاته ، فإنّ تركيب الجماعات في الحالة التي ظلّ يها استبداد الفرد عنصراً تطورياً ، كان من شأنه أن يجعل لتسود الفرد واستبداده كيزة أساسية في نظام الحياة الانسانية ، كما أنه لا ينبغي أن ننسى أن الفرد ، وبخاصة في لأزمان البدائية ، لم يستغلّ موقفه باعتباره عنصراً من عناصر التطور لمحض أنانيته ومصالحه لصرفة ، بل إنه كان على قدر مّا مضطرًّا بحكم وضعه الطبيعي من الجماعة وارتباطه بها ، من

---

(١) نشر من هذا البحث ثلاث مقالات في عدد ديسمبر : ١٩٤٧ ، وعددي يناير وفبراير : ١٩٤٨

حيث أنه عنصر تطوري ، أجنح الى الغيرية منه الى الأنانية ، والى جعل سلطته واستبداديته أكثر مسايرة لحاجات الجماعة من مسايرتها لفرديته .

تلك حال استقرت في البدائيات الإنسانية ، في الحياة الطبيعية الأولى وفي الحياة القبلية ، وبخاصة في الدور الذي يدعوه بعض المؤرخين الدور الطوطمي في نشوء المدنيات وظل الانسان خاضعاً لهذه الحال وسنن التطور تجري عليه متكاسلة بطيئة ، خاضعة لكثير من التطور الطبيعي ولقليل من التطور الاجتماعي ، حتى بدأ طور الامبراطوريات العظمى في التاريخ وانقلاب الأمر من رياسة روحية تنحصر في رئيس يستمد سلطانه من الأشياء الروحانية ، الى رياسة مدنية زمانية تنحصر في رئيس خرج بتخيلاته من مدار القبيلة والطوطمية الى مدار السيادة والتسلطية ، وتألفت عناصر الدولة ، ولاح في أفق التاريخ الانساني شبح الامبراطوريات العظمى ، فتضخمت الفردية وتركزت في فرد واحد هو رئيس الدولة أو رئيس الامبراطورية ، فكان لتضخم هذه الفردية نتيجة ضرورية هي توزيع شيء من سلطة الرياسة على أتباع يعتبرون قرناء للرئيس الأكبر ، وإن كانوا يستمدون سلطانهم من سلطانه واستبدادهم من استبداده ، وبذلك نشأ ما نسميه بالنظام الاقطاعي في التاريخ الانساني . وفي النظام الاقطاعي بلغت الاستبدادية الفردية قمة القوة والتسلطية على الجماعة . ذلك في حين أن النظام الاقطاعي لم يعترف يوماً بحدود طبيعية للقوميات أو للسلالات ، فكان المثل الأعلى لهذا النظام هو بسط السلطان على أكبر بقعة من الأرض بغض النظر عمن تضمهم من الأقوام أو القبائل ، ولم يبدأ هذا النظام في الانحلال إلا بعد أن قويت الروح القومية ومضت في التنشؤ واستكمال أسباب القوة ، وكان ذلك ولا ريب بدء العصر الجديد ، عصر الصراع بين الجماعة والفرد ، عصر الانحراف عن الحياة القبلية ، حياة الروحانية أو الطوطمية ، الى الحياة العريضة ، حياة الحرية والطماعية في أن تضيق دائرة الفروق وتتسع دائرة المشابهات بين الأفراد .

على أن هذا كله قد تضمن صورة من التطور بدأت بنظام فيه تكافل ، الى نظام فيه تنافس . تكافل بدأ مع الجمعية عندما شعرت بالحاجة الى الدفاع عن كيان الأفراد وكيان المجموع إزاء اعداء كثر ، فكلما قل عدد الأعداء الطبيعيين وراح الانسان يحيا حياة

اطمئنان نسبي في ظل صورة ما من المدنية مقيساً على حياة مليئة بالشرور والاضرار ، أخذت عقدة التكافل الأول في التفكك بعض الشيء ، وكادت تنحل تماماً في العصور التي خرجت فيها استبدادية الفرد الى ميدان التسابق الى السلطة لذاتها ولفائدته الخاصة ، لا لفائدة الجمعية . وسنرى أن الجمعيات الانسانية ، كما بدأت حياتها الاجتماعية بصورة نسبية من التكافل ، لا بد لها من أن تعود الى صورة تكافلية تلائم حياتها الحديثة ، وانه لا معدى للجماعات عن ذلك إن هي شاءت أن تحتفظ بقوتها الابتكارية التي تدفعها الى الأمام وإلى حياة التقدم التي تتسامى اليها المثاليات

ينبغي لنا أن نفطن دائماً الى أن في حياة الجماعة ناحيتين : الناحية التركيبية ، وهذه تتعلق بالصورة والقالب الذي تصب فيه الجماعة خلال عصر بعد عصر . ثم الناحية التكوينية وهذه تتعلق بالنشأة والوراثة والدم . فالناحية التركيبية أطوع لعوامل التطور وألين قواماً وأهش بنية من الناحية التكوينية التي هي بمقتضى أنها ألصق بحياة الفرد ، تكون أعصى على التطور وأصلب عوداً في مكافحة عوامله .

الناحية التركيبية هي الناحية التي تتوالى عليها صور المدنية والحضارات . أما الناحية التكوينية فهي الناحية التي تمضي فيها الأفراد متطورة ببطء شديد ، إذ تتناول التكوين والوظيفة العضوية ، في تدرجات يتعذر استبانتها ، وفي مراتب يعسر علينا أن نستجليها . على أن لكلا الناحيتين علاقة بالفرد ، الأولى من حيث تصوراته ومشاعره وعواطفه وانفعالاته ، والثانية من حيث خضوعه للبيئة والأرض والاقليم والوراثات الدمية البعيدة . لهذا نرى أنه قد تنشأ حضارة فتزدهر وتربو ، ثم تنحل وتتنكس ، فلا يتناول ذلك الحدث غير الناحية التركيبية في الجماعة . أما الناحية التكوينية فتظل ثابتة ثباتاً نسبياً على قدر ما تؤثر عوامل التطور العضوي في الأفراد . نريد أن نخلص من هذا الى القول بأن مظاهر الناحية التركيبية إنما هو تطوُّر يتناول الظاهر ، أما مظاهر الناحية التكوينية ، فتطوُّر يتناول الباطن الذي لم يخلص العلم على جلالة قدره إلاَّ باشارات بسيطة من أسبابه .

ولا شك مطلقاً في أن أثر التسلط الفردي لم يتناول من مظاهر التطوُّر الجماعي إلا الناحية التركيبية . أثر فيها وكيّفها بما يلائم على وجه الاستمرار نزعاته ومصالحه ، وألبسها الثوب الذي يلائم مزاجه ويرضي خيالاته ويشبع عواطفه وانفعالاته . ولا يجب أن يتبادر الى الذهن من قولنا هذا أن تأثير التسلط الفردي في الناحية التركيبية من الجمعية ، لم يعطف الى التأثير في الناحية التكوينية منها . فالغزو والحروب وتحطيم المدنيات بيد الهمج والمغازي الكبيرة التي يذكرها التاريخ ، وهي في الغالب أثر من آثار الفردية المطلقة ، قد خلفت

بين الشعوب ومزجت دماءها ، كما أن تغاير البيئات كان له أثر في الناحية التركيبية وأي أثر. ولكن كل هذا لم يكن متعمداً ولا ملحوظاً ، على العكس من أثر الفرد في الناحية التركيبية فقد لحظ فيه الفرض والغاية ، إذ رمى في كل اتجاهاته وعلى مختلف ضروبه وألوانه الى تسوّد الفردية واخضاع الجمعية لها .

إن الاحاطة بالأسباب التي أدّت الى سيطرة الفرد على الجمعية ، وجعلته ينشب أظافره في النظام التكافلي البدائي فيزلزله ويقضي عليه ، ويحل محله نظام السلطة الفردية ، أهون سبيلاً وأرخى مأخذاً من البحث وراء الأساليب التي تذرّع بها الفرد ليستعبد الجمعية . يمكن تأثّر الأسباب من أحداث واقعة ظاهرة . أمّا الأساليب فنها الخفي البالغ في الخفاء ومنها الغامض الضارب في الغموض ، ومنها الظاهر الجلي الواضح . أسلوب التسلط الفردي هو الجانب الخفي . هو ذلك الجانب الذي يرجع فيه الأمر الى البواعث النفسية والوراثية عند من سلطوا على الجماعات ، والجانب الظاهر هو ذاك الذي تكيفت فيه هذه البواعث فظهر ملابساً لنظامات وعقائد وأوهام رمت جميعاً الى تعزيز السلطة الفردية .

ولست في مقام من البحث اضطر فيه الى احصاء وجوه ذلك التكيف ومظاهره ، وانما أضرب على ذلك بعض الأمثال المؤيدة بحقائق التاريخ . فقد كانت الدعوى بحق الملوك الالهي في الحكم والتحكم دعوى فاسدة من أساسها ، ولكن أيدها الملوك بالقوة وثبتوها بالسلطان واستعانوا على تركيزها في صلب النظم الاجتماعية برجال الدين واللاهوتيين .

كذلك لست في مقام البحث عن السبب في نشوء هذه الفكرة وما قام عليها من نظامات وعقائد . ولكن يكفي أن أضرب بها مثلاً عن صورة من التكيف لابست عقيدة موروثة وظلت من أقوى الأسلحة عملاً في اخضاع الجمعيات للسلطة الفردية .

ومن ذلك أيضاً أن النظامات الحديثة لم تنشأ وتترعرع الا في ظل التشريعات التي وضعها أصحاب السلطة الفردية لتكون رباطاً ترتبط به الجمعيات . ومنه أيضاً تأييد أصحاب الدين واللاهوتيين للملوك في تشريعاتهم ليؤيدهم الملوك في سلطتهم الروحية وفي امتيازاتهم التي أقرّتها شرائع العهود البائدة .

ولا شك في أن شيئاً من ذلك قد انتقل من عهد السلطات الفردية المستبدة الى النظام الاقتصادي القائم ، فبدّلت الجمعيات أسياداً بأسياد وملوكاً بملوك ، فاستمرّت العوامل التي أفسدت النظم التكافلية البدائية مؤثرة في بناء المجتمع حتى يومنا هذا . وأما بيان ذلك فموعدنا به البحوث التالية .

اسماعيل مظهر

من القصص الرمزي

تجارب

جبل شامخ يمتد في عرض الأفق ، له جانبان أحدهما مضيء يواجه الناس والآخر سابح في الظلام لا يعرف أحد حقيقة ما فيه .

وعند أقدام هذا الجبل خلقٌ كثير تدفعهم جميعاً قوّة خفيّة إلى أن يتسلقوه . وساءل بعضهم بعضاً عن هذه القوّة العنيفة التي تدفعهم الى الأمام دفعاً وترفعهم على الجبل رفعاً . تساءلوا عما هي ، ثم قالوا لسنا ندريها !! إنها قوة أحسسناها يوم أحسسنا الحياة ، بل إننا لم نعرفها إلاّ بعد أن لمسنا آثار دفعها . هي نفسها التي عرّفتنا ثدي الأم ونحن صغار ... إنها الغريزة ... إنها الغريزة .

ولغطوا بهذا القول وهم واقفون عند السفح يتزاحمون بالأكتاف :

ولم يكن في رقعة الجبل المضيئة إلاّ طريق ممهد واحد يفضي إلى القمة ولا يسع إلاّ صاعداً واحداً . طريق نحتته الأقدام في صخور الجبل على مرّ الزمن وكثرة الصاعدين . زق الأرجل فيه بحركة آلية على كثرة التوائه وتعرجاته وضربه في كل نواحي الجانب المضيء . خلق للصعود فحسب وللتقدم وحده ، فلا يستطيع أحد أن يهبط فيه متراجعاً الى الوراء وإلاّ سخر منه من وقفوا بالسفح . يمر بكهوف هي مناجم ذهب ، ثم بكهوف هي أوكار حيات ثم بكهوف عسّل فيها النحل ، وهنالك عيون تفجرت بالماء ، وليس يستطيع الصاعد أن يحيد عن المرور بهذه جميعاً ، ويتابع السير مرفوعاً بالقوّة الخفية حتى يصل الى القمة .

* * *

وتقدّم أقرب الواقفين من مدخل الطريق ونظر الى من خلفه نظرة وداع ، وحملته القوة الدافعة فجعل يصعد في الطريق عجلان سعيداً ممنياً نفسه بما سيلاقي من عسل وذهب ، وبقي الجمع واقفاً يرقب كل واحد منهم دوره .

ودار الطريق بالصاعد الأول يمنةً ويسرةً ، وعلا به مرة وسفل به مرةً ، وتعاوره النور والظلام في حزون الجبل وسهوله ، وهو مغتبط بما يرى لأنه ينال من الظلمة هدوءاً ومن الضياء اهتداءً . وألقى نظرة على من بالسفح ولوّح لهم بذراعيه ، وقال لهم : إنني سعيد . فردّدت أنحاء الجبل قوله : إنني سعيد . فشمر الصاعد الثاني وهو لا يزالُ عند مدخل الطريق ، من أذياله مستعجلاً وصول الأول الى القمة حتى يصعد من بعده .

ثمَّ دار الطريق بالأول يمنة ويسرة ، وعلا به مرة وسفل به مرة ، حتى بلغ كهوفاً عسّل فيها النحل ، فأراد أن يطعم ولكن ارجاء الكهف أنّت جميعها بطنين النحل ، فغالبها حتى غلبها وطعم من شهدها بعد أن نالت منه إبرها كل منال . فألقى نظرة على من بالسفح ولوّح لهم بذراعيه وقال : انني سعيد ، ولو أن ابر النحل آذتني . فردّدت أنحاء الجبل قوله : انني سعيد . فتململ الصاعد الثاني في مكانه عند مدخل الطريق مستعجلاً وصول الأول الى القمة حتى يصعد من بعده . ثم دار الطريق بالأول يمنة ويسرة ، وعلا به مرة وسفل به مرة ، حتى بلغ كهوفاً وكرت فيها الأفاعي ، ودسّ يده في ظلمة الكهف فأحسّ أن فيه شرّاً ، فأسرع يجري ، وتعقبته أفعى فجعل يصيح : يا للشقاء ! يا من بالسفح كونوا على حذر فان الطريق ليس خيراً كله : هنا الذهب ، وهنا العسل ، وهناك الأفاعي . كونوا على حذر ... فردّدت أرجاء الجبل : كونوا على حذر !

ورجعت الأفعى حين أيقنت أنه لن يعود ، وأجدّ الصاعد في طريقه حتى وصل الى القمة ووقف يفكر ، فاذا بحلاوة العسل والينابيع أقل بكثير من مرارة الفزع حين طاردته الأفعى . ثم أحسّ أن القوى خارت ، وان السفر الطويل أذوى العود ولوّح الوجه وأضعف النظر ، والتفت الى الجانب الثاني من الجبل فاذا هو غارق في الظلام . ثم نظر الى الطريق الذي قطعه فاذا به صالح للصعود ولا يقبل العودة ، فندم على أن فعل ، ولكن كان لا بدّ له أن يفعل لقد قطعه بالغريزة ! ورأى من بالسفح شبح رجل يترنح ويترنح ثم يهوي الى الجانب الثاني الى حيث يبتلعه الظلام !

لم يستطع هذا المنظر المفزع أن يحوّل الصاعد الثاني عن عزمه وهو عند مدخل الطريق فنظر الى من خلفه نظرة وداع وحملته القوة الدافعة الخفية فجعل يصعد في الطريق مجلاً صعداً

لأنه سينتفع بتجارب من سبقه : سينهل من الينبوع ويطعم من العسل مجانباً طريق الأفاعي .

وما كادت رجلاه تأخذان الطريق حتى هبت في أعلى الجبل رياح عاصفة شردت النحل عن الخلايا فترك عسله بلا حارس ، وأجبرت الأفاعي على أن تهاجر من كهفها الأول الى حيث كهوف الذهب فنامت حوله . وشخص من بالسفح الى الصاعد الثاني وأرهفوا الأسماع ، فردّدت أنحاء الجبل قوله : إنني سعيد ، عسل لا يحوطه نحل ، وافرحتاه ! فشمر الثالث من أذياله عند مدخل الطريق مستعجلاً وصول الثاني الى القمة حتى يصعد من بعده . وما هي إلاّ فترة حتى سمعوه يقول : ليس في كهف الأفاعي أفاعٍ ، يا له من طريق مأمون ! فساد السامعين هرج ومرج ثم قالوا : لتحيَ التجارب ! ودار الطريق بالصاعد يمنة ويسرة ، وعلا به مرة وسفل به مرة حتى بلغ كهف الذهب ، ودسّ يده في ظلمته فلدغته حية . وهنا ردّدت أرجاء الجبل صرخة مرعبة قوية روعت سواكن الطير ، وتهامس من بالسفح :

ليكن ... فلن يقع الثالث في هذه الغلطة ! ثم جعل الثاني يدور مع الطريق متململاً من الألم والأفعى ترقص في موضعها لأنها ثأرت لنفسها ، حتى وصل اللديغ الى أعلى القمة فاذا القوى خائرة والجسم تالف . فنظر الى الجانب الثاني ودار مترنحاً ثم هوى الى حيث ابتلعه الظلام . ولكن هذا المنظر المفزع لم يحوّل الصاعد الثالث عن عزمه وهو عند مدخل الطريق !

* * *

كانت طبيعة الجبل خاضعة لناموس التغير لا فرق بينه وبين من يقف عند سفحه من الناس : فلم يكن ذهبه يستقر في فجوة حتى تنقله الأفاعي الى فجوة أخرى ، وكثيراً ما كانت سباع الجبل من طير ووحش تهجم على خلايا العسل فتتلفها ثم يخرج النحل غيره من جديد في مكان بعيد . أما العيون فكانت تغيض في مكان ثم تنبع من بعد في مكان آخر .

لم ينل الصاعد الثالث فى طريقه الاّ الماء ، وطاردته الحيات طول مسيره حتى لقي مصيره على ذروة القمة . ولم ينل الصاعد الرابع سوء ولا أذى فطعم شهداً وارتوى ماءً وامتلأ ذهباً ، حتى بلغ القمة فهوى الى الجانب الثاني ولم تكف أرجاء الجبل عن ترديد

لفظي السعادة والشقاء مع كل صاعد. فلا الطريق مسعد ولا الناس يكفون.

وهنا جاشت النفوس بريب شائك وتذمر شديد، وبدأ مَن بالسفح يقولون:

— هذا عبث ... ما أخلقنا ألاَّ نستجيب الى نداء ما سميناه بالغريزة فنكف من أول خطوة عن الصعود في هذا الطريق الوعر!

— إنك لا تستطيع وأنت واقف عند مدخله أن تزود نفسك الطموح عنه، لأن بريق ذهبه يعميها.

— وتستطيع أن تنتفع بتجارب الذين سبقوك فتحيد عن الأوكار وتمر بالمناجم.

فقال حكيم: إن فينا من الغافلين كثيراً... والى هذه الساعة لا تفهمون أن طبيعة الجبل غير ثابتة!؟ كل شيء فيه يتغير الا النور والظلام، فما قيمة تجارب من سبقونا!؟ لا أنكر انها نافعة ولكن إلى حدٍّ غير بعيد.

فقال فيلسوف: لكنها تهدي صاحبها على الأقلّ

فضحك أحد المجانين وقال: لكنه لا يدّخر منها القدر الصالح إلا بعد أن يقطع الطريق كله ثم يجد نفسه عند القمة، ثم يبتلعه الجانب المظلم فلا تغني عنه التجارب فتيلاً.

فضحك القوم من حكمة المجنون...

وعادت النفوس فجاشت بريب شائك وتذمر شديد.

* * *

وهنا وقف أحد الصالحين وقال: أيها الناس: إن مصدر عنائكم في موقفكم هذا هو أنكم تفصلون الجانب المضيء من هذا الجبل عن جانبه المظلم. هنالك تكمل سعادة السعداء وتنشأ للأشقياء سعادة ما داموا يحفظون توازنهم وهم صاعدون في الطريق. هناك ضياء وهنا ظلام... هناك طريق ليس المصرع آخر المطاف فيه!!

فالتفوا حوله يقبلونه وهم في نشوة اليقين، وسخروا من أنفسهم التي تصوّرت أنَّ هناك جبلا له جانب واحد

محمد عبد الحليم عبد الله

نظرات في النفس والحياة

-٦-

تكملة نظرات أناتول فرانس

(١) كان جان ايلو (السمّاك) قليل الكلام ولكن كلامه كله كان مقصوراً على ذكر المصائب ووصفها كمصائب أقاربه الذين ابتلعهم البحر وهم يصطادون السمك وعلى كثرة ذكره المصائب لم أجده إلاَّ وادعاً مطمئنَّا. كأنما يجد فيها كلها خيراً لأنها أمرٌ مقدَّر — وهذا السمّاك الجاهل يذكرني حكمة جويته كبير أدباء الألمان التي وصل إليها بالثقافة ورياضة النفس بعد العهد الذي أسماه عهد العاصفة والشدة وهي قوله: الرجل السعيد هو الذي يطمئن الى ما يريده القضاء كأنما هو الذي يريده ويرغب فيه اذا كان أمراً محتوماً. وقد وصل جان ايلو الى مثل هذه الحالة بالطبع والغريزة أو العادة.

(٢) وكانت خادمتنا ميلاني تمر كل يوم على صاحبات الدكاكين ويشوقها أن تحادثهنَّ وكان كل حديثهنَّ مقصوراً على ذكر الأسقام والأمراض وأنواعها وآلامها وأوصافها كأنما في وصفها لذة لهنَّ. فاذا انتهينَ من حديث الأمراض ولجنَ حديث الجرائم التي تقشعر منها الأبدان — وهكذا تُرفّه الحياة عن بعض الناس حتى بأنواع غريبة مألوفة من أحاديث النكد والفزع والرعب.

(٣) يتَّفقُ في بعض الأحايين أن يتنافر زميلان في كل أمر وأن يختلفا في كل شيء وأن يتشاجرا في كل خلاف ومع ذلك تكون بينهما رابطة وثيقة وصلة متينة وألفة دائمة أساسها هذه المشاحنة التي تصير ديدناً لا يستغنيان عنه وعادة لا تتم سعادتهما إلاَّ بها ودعامتها اذا استراحا فترة من المشاحنة اتفاقهما في أمر واحد كالسخر من عداهما من الناس

(٤) كان في طريقنا حانوت على بابه صنمان وقد علمتني أمي أن أراهما يبتسمان اذا أحسنت

السلوك ويعبسان اذا أسأت وكانت أمي تقول : اعمل خيراً تبتسم لك الدنيا — وتوهُّمي ابتسام الصنمين وعبوسهما من الإيحاء النفسي، ولكنه مؤسس على حقيقة وهي أن المرء اذا كان راضياً عن سلوكه وعمله سُرَّت نفسه فتنعكسُ أشعة سروره على مرآة الدنيا .

(٥) قالت بلقيس : إن سكرة الفزع تسري في أوصال جسمي ليلاً فان للخوف أو الفزع لذَّة في بعض النفوس أو في بعض الحالات وهذا يذكرني قول لفنجستون الرحالة المستكشف وقد أوقعه أسد على الأرض ووضع قدمه عليه وكاد يفترسه ويقضي عليه لولا أن رجلاً قتل الأسدفقال لفنجستون إني كنت أشعر بذهول لذيذ من الخوف. ولعلَّ هذه اللذة في الخوف من الأساليب التي تخفف بها الحياة في بعض الاحايين ويل الآلام والمصائب. وربما يعتري مثل هذا الذهول كثير من الحيوانات التي تكون فريسة وطعمة لغيرها . ويذكرني هذا قول بيرون الشاعر الانجليزي ان من رحمة الحياة أن الانسان لا يستطيع ان يتحمل إلاَّ قدراً محدوداً من العذاب فاذا زاد العذاب أُغْمِيَ عليه أو هلك وهو في الحالتين لا يحسه — ومما يذكر عن الجنود ان أشد الجروح قد لا تصحبها آلام في بعض الحالات أو تصحبها آلام أقل من آلام الجروح الخفيفة .

(٦) كان لي صديق اعتزل العالم وعوّد نفسه ان لا يفكر ولا يعمل خشية ان يكون لفكره أو عمله عواقب من الشر يصيب الناس ولا يتوقعه فقلتُ له ان امتناعك هذا قد يجلب الشر أيضاً وليس الفكر والعمل والقول ما يُقصر عليه مصير الانسان والتحكم في حياته فان حصاة صغيرة تنسلخ من جبل قد تكون لها عواقب كثيرة غير متوقعة وامتناعك عن العمل قد يتخذه أناس طريقاً للخير والهداية فيقاتلون من لا يعتنقها . قال صديقي فلابدَّ إذاً أن يموت الانسان حتى يسلم من عمل الشر . قلت أحذر من قولك هذا فان موتك أيضاً عمل وكل عمل قد تكون له عواقب من الشر غير متوقعة .

(٧) زار جان سرفيان بيت صديقه ادجار ورأى مظاهر الترف والنعيم فشعر بنقص ووضاعة وسألته أم صديقه قائلة ما صناعة أبيك ؟ قال مستخذياً انه مُجَلِّدٌ للكتب. وأحسَّ بالغيظ والنقمة على أبيه الذي اختصه بكل ما استطاع . ووَدَّ ان لا يراه أبداً من الغيظ والحنق والشعور بالذلة وكل ذلك بسبب زيارة قصيرة لبيت الترف وهي زيارة لا تنفعه

كما نفعه أبوه – وهذا يذكرني اعتراف جويتى كبير أدباء الألمان انه في أحلام العظمة كان يجول في خاطره أن أباه ليس الرجل الذي رباه بل ان أمه حملت به سفاحاً من أمير جليل الشأن . ويذكرني أيضاً قصة من قصص جي دي موباسان سمح فيها فلاح فقير لرجل غني عقيم ولزوجه العاقر ان يَتَبَنَّيا ابنه وان يربياه وكان جاره قد رفض ذلك مستعزّاً بابنه فلما كبر الغلام الذي رُبِّي في النعيم وترعرع وزار القرية ورآه الغلام الفقير المستعَزّ به حقد على أبويه حرمانه من هذا التبني في كنف النعيم ولعنهما وهجرهما وهما في حاجة اليه في كبرهما – وهكذا الانسان ينسى فضل أقرب الناس اليه اذا غلبته الأثرة والغيظ والحسد والطمع .

(٨) وكان جان مغيظاً مُحْنَقاً وأحسَّ برغبة في أن يرى إنساناً أو جماداً – أو حيواناً – يُشبع منه نهمة غيظه وكرهه وقسوته – وهكذا الانسان قد ينكل بمن لم يكن سبب غيظه اذا استشرى الغيظ وتملكه الغضب وفارقه الانصاف ونزل الى مرتبة الجنون أو الاجرام أو البهائم أو ما دون ذلك .

(٩) قال الأب سرفيان : تعلَّمْ يا بُنيَّ واشتهر ولا تَخْشَ عند ما تصير وزيراً أن تجلب لك المعرَّة بوضاعة أصلنا فإننا نختفي أنا وعمتك في قرية صغيرة فغضبت العَمَّة وأبت إلا أن تدبر أمور منزل ابن أخيها عند ما يتعلم ويشتهر ويصير وزيراً وألحت على أن تدير شؤونه وشاحنت أخاها وشاجرته كأنما كانت تعاركه في أمر قد حصل أو هو قريب الحدوث وهكذا الناس في حماقتهم يتطاحنون حتى على الخيال أو المحال .

(١٠) قد يتسامح المرء في الاختلاف العظيم اذا اطمأنت نفسه إلى عقيدته او عرف أن خصمه لا يستطيع السموق بفكره والتسامي برأيه اليه كي يلم به ويستوعبه كما كان يصنع الراهب لوبجار مع من ينتقد دينه وعقيدته، ولكنه قد يدركه الغيظ إذا خلط مناقشه ووضعه في طائفة ليس منها وبينهما في العقيدة والطريقة فرق قليل إذا كانت بين الطائفتين منافسة وهكذا كان يغضب الراهب لوبجار اذا نسبه أحد الناس الى طائفة من الرهبان غير طائفته وكان يقول إن الرجل الذي لا يستطيع التمييز بين الطائفتين لا يستطيع أن يرى الذبابة في اللبن وهذا يدل على أن الطوائف المتقاربة قد تكون أشد تباعداً وتنافراً

بسبب قلة الخلاف بينهما كما يدل على أن الانسان غريب الخلاف لنفسه فيتسامح في الأمر العظيم ويتحامق في الأمر الصغير في بعض الأحايين .

(١١) انك إذا اغتفرت لانسانٍ ذنباً وكان اغتفارك ذنبه على سبيل الاحتقار له والزراية عليه والازراء به والاصغار لشأنه والتهوين من أمره، فانه قد لا يغتفر لك صفحك وعفوك وكرمك إذا كان باعثك على ذلك الازدراء والاحتقار وإذا عرف أن هذا كان باعثك . وهذا بالرغم من استفادته من اغتفارك ذنبه والصفح عنه .

(١٢) قد يثير وقار المعاتب الذي لا يقبل الجدل من الغيظ أكثر مما تثيره ضجة المخالف الصاخب الذي يقبل الجدل ويقابل الصخب فيه بصخب مثله لأن الأمر قد ينتهي عند ذلك ولا يخلف كبتاً ولا قهراً في النفس ما دامت ضجة المخالف تقابل بضجة مثلها أو قد تكون معاودة بعد مثل هذا الخصام الى الألفة والعشرة . أما وقار المخالف الهادىء الذي لا يقبل جدلاً ولا صخباً فلا حيلة فيه ولا سبيل لدفع لومه وقد يسبب القطيعة والوحشة طول العمر .

(١٣) اذا ثار ثائر وخاب وهزمَ عُدَّ مجرماً عاصياً . أما إذا ظفر ونجح عدَّ حاكماً شرعيًّا — قوله الشريعة والقانون وأعداؤه هم المجرمون — فلو أن يوليوس قيصر هزم بعد عبوره نهر روبيكون في زحفه على روما، ولو أن نابليون بونابرت خاب وقتل يوم انقلاب بروميير عند ما ثار على الجمهورية الفرنسية الأولى، لعدَّا الآن من المجرمين ولم تعرف شرائع وقوانين باسميهما

(١٤) في بعض الأحايين تستفحل حكومةٌ السلطة في الحكم فيخاف الناس أن تسقط إذا تعوَّدوا تتابع الحكومات المستفحلة فتأتي بعدها حكومةٌ شرٌّ منها. وهذا يذكرني قصة امرأة عجوز كانت تذهب كل يوم الى بيت العبادة كي تدعو ربها أن يطيل حياة الطاغية الذي كان يحكم بلدتها سرقوزة، فعلم بها وأرسل في طلبها فلما مثلت بين يديه سألها لأي أمر تدعو له كل يوم بطول العمر . فقالت أخشى إذا مت أن يخلفك من هو شرٌّ منك. ويذكر هذا بقصة الجريح الذي سقط الذباب على جروحه وامتصَّ دمه فأشفق عليه رجل وأراد أن يبعد الذباب عنه فرجاه أن يتركه لأن الذباب الواقع على جروحه كان قد شبع من دمه فاذا أزاحه عنها حلَّ محله ذباب لم يرتو من دمه بعدُ فيكون هو الخاسر

(١٥) كانت فلسفة روسّو مؤسسة على أن الانسان بطبعه مخلوق خيِّر طيب فاضل وهي عقيدة لا يعتنقها إلاّ من لا يستطيع الضحك ولا الابتسام. وقد ظهر تناقضها عندما اعتنقها ساسة الثورة الفرنسية الأولى وحاولوا تطبيقها فقد كان روبسبير يحسب أنه من المستطاع أن يبلغ الانسان كمال الفضيلة فاشترك في حكم الارهاب كي يبلغ به حد الفضيلة فاضطرّ الى الاكثار من استخدام القتل عقوبةً. وهكذا كل سياسي عظيم التفاؤل بهذه العقيدة يبدأ بقتل بعض الناس، ولو تُركَ يصنع ما يشاء لقضى على الناس جميعاً أو على اكثرهم.

(١٦) من العجيب أن كثيرين يضعون الانسان في فصيلة تشبه فصيلة القرود ثم يغضبون إذا رأوا خصاله تشبه خصال القرود.

(١٧) إنما كتبت قصة الثورة الفرنسية كي أوضح أن الانسان لم يبلغ من الكمال حداً يمكنه من أن يكون عادلاً اذا عاقب بدعوى مناصرة الفضيلة. فالرحمة إذاً أقرب الى العدل ولن يتم عدل الانسان اذا نظر الى جانب العدل وحده وأهمل جانب الرحمة — ولكن الناس تثور وتقتل وترتكب الموبقات بدعوى مناصرة الرحمة أيضاً وإزهاق ما يخالف مبدأها.

(١٨) قرأ لنا معلمنا المسيو كروتّو قصة مارسياس الانسان الحيواني الذي أراد أن ينافس أبولون رب الفنون الجميلة فقهره أبولون وقتله وسلخه فارتعت ووجمت ولم أعرف كيف أسوّغ قسوة رب الفنون الجميلة اذ سلخ خصمه، وأخلقْ بمن كان رب الفنون الجميلة أن يُنزّه نفسه عن هذه القسوة الشنيعة وأن ينزه الناس عن قدوتها، وإلاّ فبأيّ شيء تكون تلك الفنون جميلة اذا لم ينزه نفسه. ولكن عند ما تذكرت أن صورة مارسياس تشبه في خيالي صورة معلمنا كروتّو الذي كنت أمقته، سهل عليّ أن أغتفر لأبولون قسوته — وهكذا الانسان يسوّغ الشر اذا وقع بشبيه من يكره ولا يرى القسوة قسوة اذا قاساها من يعادي أو شبيه من يعادي.

(١٩) أستطيع أن أقول قول روسو أني لا أكذب إلاّ لتأييد الحق — واذا

استرسل المرء في هـذا المنطق استطاع أن يسوّغ كل شر بدعوى تأييد الحق أو تأييد ما يخال انه الحق وإن لم يتضح له ولم يتحقق بما لاشك فيه أنه الحق .

(٢٠) كان من سوء حظ جان سرفيان وهو عائد الى منزله أثناء ثورة الكوميون في باريس أن قابل بعض الثوار تقودهم امرأة ورأى الثوار أن جنود الحكومة يقتربون فأرادوا الفرار فقالت المرأة نقتل هذا أولا وأشارت الى جان ولم تكن تعرفه ولم يكن له ذنب بل كان من حزبها أو يميل إليه . ولكن المرأة استهواها حبُّ سفك الدماء فأطلقت عليه الرصاص ووقفت ترقص على جثته — وعدل هذه المرأة أو ظلمها مثل عدل أو ظلم كثير من الناس وان ظهرا في مظاهر أخرى إذ أن من عادة الناس أنهم ينكلون أولا ثم يبحثون وقد لا يبحثون

(٢١) كتّاب الاعترافات يغالطون أنفسهم ويغالطون الناس إذ يزعمون أنهم لم يخفوا عن القراء شيئاً من حياتهم وأفعالهم وخصالهم وخطرات نفوسهم . إذ أن هذا الاعتراف الكامل أمرٌ لن يستطيعه انسان ولم يستطعه جان جاك روسو بالرغم من صراحته في اعترافاته وذم نفسه والاساءة اليها .

(٢٢) أعظم فائدة تفيدها حقائق الحياة انها أساس يبني الناس عليها آمالاً للحياة ليست فيها .

(٢٣) مما جعلني أغتفر للحياة آلامها أني قرأت قصة لكاتب وصف فيها أناساً لا يغضبون ولا يحزنون ولا يألمون ولا يشتهون ولا يحبون ، فرأيت أنه قد محا السرور والسعادة والجمال والشعر والفنون عند ما محا آلام الحياة ومكارهها .

(٢٤) كنت في صغري أحب أن أتودّد إلى أقراني فيعتريني الحياء فلا يكون جزائي إلاّ السخر ، لأن الحياء يبعث على الاحجام عن التودّد والارتباك والتردد فيه فلا يكون نصيب صاحبه إلاّ السخر منـه والانصراف عنه — وقد يخال ما به الكبر والصلَف والزهد في الناس والتعالي عنهم — وهذا اذا لاقى من هو أكثر منـه جرأة فاذا قابل من هو في مثل حيائه كان نصيبه أيضاً الاهمال والانصراف عنه . فالناس كثيراً ما يسيئون الظن بصاحب الاحتجاز والاحجام عن التقرّب اليهم من حيائه وخشية أن يكون نصيبه في

تقرّبه منهم النفور منه أو الاهانة أو السخر أو الازدراء ، فكم منع الخوف من هذه الأمور من مودات وألفة وتفاهم . والناس معذورون إذ أن صاحب الحياء يشعر بنقص من أجله وقد يستره بالكبر، وقد يغالي فيستره بالخشونة والتجهّم في معاملة الناس .

(٢٥) ربما كان أشد الناس اضطهاداً للناس هم الذين قاسوا آلام الاضطهاد وثاروا عليه ولكن معاناتهم له لا تَعِظُهم. والمعروف ان الذين يريدون أن يغيروا نُظُم الحياة كما يشاءون يأبون على غيرهم ان يريدوا ما أرادوا وقد يغالون في ذلك .

وقد كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ يرتعد اذا رأى شباناً في مظاهرة سلمية ويود أن يستخدم الشرطة النار والسلاح لمنعها . وهذا الشيخ كان في شبابه عضواً في كل جمعية سرية ثورية ، وزعيما في كل ثورة . ومن الأقوال المعروفة : أنك إذا أردت أن يتخلى ثائر عن حدّته فاجعله وزيراً فانه يصبح من المحافظين ، إذ أن مسؤولية الحكم ونظرته الى الأمور تدعوانه الى أن يرى من الأمر ما لم يكن يرى قبل قيامه بأعباء الحكم .

(٢٦) كثيراً ما يحدّثك محدّث فيقول سنرى قريباً تغيراً كبيراً في نظم الحياة وسننها ولكن الأمور لا تتغير إلاّ ببطء — وما دام الانسان إنساناً فإن طباعه وغرائزه التي نشأت ونمت ورسخت في مئات الآلاف من السنين لا تتبدّل إذا تبدلت إلاّ ببطء. فمثل الانسان إذا غير نظام حياته وحسب أنه غير طباعه أو نسخها مثل من يغير ثيابه ويحسب أنه قد غير نفسه وليس معنى ذلك أن نظم الحياة لا يحسن أن تتغير فقد قال اناتول فرانس في مكان آخر أن نظم الانسان وشرائعه وقوانينه كثيراً ما تكون مؤسسة على القسوة والظلم والمحاباة، فاذا لم تنظف من حين لآخر كانت كالحجرة المظلمة المهملة تحت الأرض تربى فيها الحشرات وتغزل فيها العناكب خيوطها وبيوتها، فليس لها إلاّ المكنسة .

(٢٧) الغريزة في الفن كالغريزة في الحب، هما الدليل الذي يعتمد عليه ؛ فاذا فارق الانسان غريزته في الفن كان كالسمك الذي أخرج من الماء لا تطول حياة فنه بعده .

(٢٨) إن الأفكار الغالبة على الجنود وإن كان بينهم أبطال أفكار بعيدة عن البطولة ،

وكذلك نزعاتهم مثل الاقدام على العدوّ خوفاً من أن يبيدهم إذا نكصوا وولوا الأدبار أو مثل خوفهم من العار والتعيير إذا أدبروا وجبنوا ، أو مثل اتقاء العواقب المتنوعة غير المعروفة للهزيمة إذا انهزموا خوفاً ، أو مثل الخوف من الحكم بالاعدام على من يفر هرباً أو حتى مثل الخوف من الخوف . فان الخوف من الخوف قد يؤدي إلى مظاهر الشجاعة والبطولة أو لأن الانسان سريع الاستجابة للايحاء ، فاذا وضعت في يده سلاحاً أحسّ بميل إلى إدخاله في بطن ما .

(٢٩) كثيراً ما تصدر عن المرء أعماله وأقواله كأنها آتية إليه من خارج نفسه ، وانما هي من استجابته لأمور الحياة واندفاعه في تيارها . ومن أجل ذلك كثيراً ما يكون المرء أعظم أو أحقر من نفسه أي من المألوف منها في حياته .

(٣٠) من فوائد العمل أنه يصرف المرء عن التفكير في آلام حياته وعن الأفكار التي قد تستحوذ على العقل والنفس وتستعبدها فتكون مثل الجنون وهو يشبع الغرور في الانسان وقد يوهمه القدرة على مغالبة القدر ويلفت المرء عن مقدار عجزه في أمور كثيرة .

(٣١) صديقات عقيلة برجريه أرغمنها على ترك زوجها وكانت قد خانته وقبلت وهي تحتقره في سرها ، لأنه هو المظلوم ، أن تُغتفرَ له لومه إياها وأن تصالحه وتبقى معه . ولكن صديقاتها أبينَ إلاّ أن تترك بيته صيانةً لكرامتها بعد أن اتهمها في شرفها ، وكنّ يُظهرنَ مؤازرتها ومناصرتها وإنما كان مقصدهنّ الذي أخفينه رغبتهنّ في التخلص منها وهي ثقيلة لديهنّ رعناء ، وقد تفضحهنّ برعونتها وحماقتها ، فكان كيدهنّ لها يلبس لباس المناصحة والمؤازرة ، كما انهنّ كنّ يكرهنَ زوجها لأنه كان رجلاً مفكراً وكنّ يسئنَ به الظن من أجل ذلك .

(٣٢) إن خلق عالم جديد ربما كان أسهل على المرء من فهم نفسه فهماً كاملاً على سبيل التقصي من غير أن يفوته شيء من حقائقها .

(للبحث بقية)

ع . ش

تلازم القلب والعقل

إن القلب والعقل أبداً متصاحبان متلازمان : فصاحب العقل الكبير لا بد أن يكون قلبه كبيراً ، وذو القلب الصغير لا محالة من أن يكون عقله كذلك صغيراً ... لقد ثبت أن عظماء الرجال قاطبة كانوا يمتازون أبداً بحواس صادقة قوية وعواطف نادرة تدرك من الجمال ما لا يدركه الآخرون العاديون ، وتذوق في إدراكها ما لا يذوقون . وثبت أنهم كانوا جميعاً فوق الناس في عواطفهم كما كانوا فوقهم فيما فاقوهم به . إن رسالة كل إنسان متقدرة ومقدر ما ينتظرها من النجاح بما يحمل ذلك الانسان من حب للجمال ومن شعور به . والانسانية كلها رهينة بما تتصوره من أهداف وأماني : فان كانت تلك الاهداف والاماني قد صورها الخيال المبدع على أبدع وأروع ما يمكن من صور الجمال ، جاءت تلك الانسانية عظيمة مبدعة وان كانت أهدافاً سخيفة مظلمة قد ولدها وشوهها الخيال المظلم المضطرب ، فلن تكون تلك الانسانية شيئاً ... إن إنساناً واحداً أو شعباً واحداً لو فقد هذا الاحساس بالجمال فقداً تاماً لوقف مكانه ، ولما استطاع أن يعمل شيئاً وأن يؤدي رسالته ، وإنه لن يعمل ولن ينتج إلا بمقدار ما يتصور ويتخيل من الجمال وبمقدار ما يملكه من حب الجمال ... إن الفرق بين الامم ليكاد يكون هو الفرق بينها في شعورها بالجمال وفي مذاهبها فيه . إن ذلك الانسان التافه القانع بالعيش التافه وبالوجود التافه ، لانسان قد برىء قلبه وتصوره من حب الجمال ، ولو أنه تزود بشيء منه لدفعه ذلك الى الامام والى الوجود بقدر ما فيه من طاقة وحرارة .

من كتاب « هذه هي الاغلال » : لعبد الله علي القصيمي : ١٩٤٧ ص ١٥٨

سياسة الارشاد الاجتماعي

على أي أساس ينبغي أن تقوم ؟

إذا نحن ذكرنا « الإرشاد الاجتماعي » في كتاباتنا أو أحاديثنا ، خُيّل لنا أنّ في مقدورنا الالمام بجملة معناه أو إدراك ما يهدف إليه بصورة عامة ، من دعوة ونصح ووعظ أو هدي منبري متحمس ، على حين أنّ أمر هذا الارشاد هو من خطر الشأن وعظيم الأثر في مصير الحياة الاجتماعية كلها ، بالقدر الذي يكاد يسلكه في عداد الموضوعات الكبرى ، التي تؤلف بدورها مجموعة الأسس الجوهرية لما اصطلحنا على تسميته بالسياسة العامة للدولة .

وحسبنا تدليلاً على صحة هذا القول ، أن نعيّن الهدف الاول الذي تقصد إليه سياسة الإرشاد الاجتماعي . هذا الهدف هو السعي الحثيث وراء تكوين « عقلية اجتماعية » متجانسة لهذه الامة ، تستطيع أن تدرك بها إدراكاً سليماً مجموعة المعاني أو القيم السامية التي تنطوي عليها رسالة الاصلاح برُمته ، وبالتالي طرائق تحقيق الأهداف الكبرى لهذه الرسالة ، وأساليب تنفيذها وتطبيقها في شتى الأوساط والبيئات ، وبين مختلف الهيئات والأفراد كما تستطيع بهذه « العقلية » الجديدة أن تشارك مشاركة فعّالة في مراقبة القائمين بأمرها ، ومن ثمّ معاونتهم معاونة صادقة في هذا السبيل .

يتبيّن لنا مما تقدّم أن سياسة الارشاد الاجتماعي ، في أقوم وأسلم صورة لها ، هي من أعقد وأشق ما تضطلع به الدولة من أعباء ، وبخاصة إذا كان الوسط الاجتماعي المُراد تطبيق هذه السياسة عليه ما يزال في أولى مراحل تكوينه من ناحية هذه « العقلية الاجتماعية » ، إذ تصبح تلك السياسة ، في حالتنا هذه ، بمثابة العبء الأكبر الذي يقتضي ، على الدوام ، تضافر القوى والجهود الحكومية وغير الحكومية إلى أبعد حدّ مستطاع ، لتحقيق « النقلة » الجبارة التي يتحقق بها للمجتمع ما يصبو إليه من تناسق بين ظروف

وأحوال طبقاته ، وما يهدف إليه من ارتفاع ملموس في المستوى المعيشي بين عامة أفراده وطبيعي أن يكون السواد الأعظم من الشعب هو المقصود بسياسة التوجيه والارشاد . فاذا عرفنا أن هذا السواد الأعظم قد اصطلحت عليه ، لأسباب كثيرة لا محل هنا لتفصيلها، جملة ظروف تعسة من جهل ومرض وفقر ، استطعنا أن ندرك مدى العبء الذي يقع على كاهل المرشدين الاجتماعيين ، وعلى كواهل واضعي سياسة الارشاد ، لأن هذه السياسة يتحتم عليها أن تكافح جاهدة هذه العلل والأدواء مجتمعة ، الى جانب ما تقوم به اليوم ، في حدود ذرائعها المحدودة من توجيه عملي لجموع هؤلاء التعساء من ضحايا المرض والفقر والجهل .

والحق أن المقوّمات النفسية والخلقية والمادية التي تعين على تكوين عقلية اجتماعية جديدة لشعب هذه هي ظروفه وتلك هي حالته ، ليست من المطالب القريبة الهينة التي يسهل علينا إدراكها في أوجز وقت وبأقل كلفة، فهي مقوّمات تستند أول ما تستند الى جو البيت ونظم المدرسة وطبيعة المهنة أو العمل والظروف الاقتصادية العامة التي تكيّف المستوى الاجتماعي لكل طبقة من طبقات الشعب ، كما أنها مقوّمات تستمد وجودها من وجود « رأي عام » ناضج ، لا يكتفي بأن يُلقي التبعة كلها أو العبء بتمامه على كاهل الحكومة وحدها ، بل يذهب الى حد أن يسائل كل فرد مستنير من هذا الشعب نفسه ، عما أدّاه من نفع أو خير للوسط الذي يحيا فيه ، وللمجموعة التي تصله بها روابط مختلفة من وحدة المنشأ وتبادل المنفعة ، فضلاً عن المشاركة في إحساسات اجتماعية واحدة .

* * *

ولقد قرأت في هذا المعنى ، « للأستاذ « كارل زيمرمان K. Zimmermann » أستاذ الدراسات الاجتماعية العليا بجامعة « هارفارد » ، في مؤلفه القيم عن « الأسرة والمجتمع Family & Society » . قوله :

« إن الأمة التي تُديم التطلّع الى الجهد الحكومي ، لتلقي عليه وحده أعظم العبء في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ من شؤون حياتها ، لهي أمة حكمت على نفسها بالجمود والموت ، وأثبتت

أنها لا تدرك معنى التضامن الاجتماعي بين الحاكمين والمحكومين ، لقصور في إدراكها أو نقص في وعيها الجمعي » .

غير أنَّ تلك المقوّمات على ضرورتها وشدّة الحاجة الى استعانتها كعناصر لها أثرها الفعّال في نجاح مهمة التوجيه والارشاد ، يعوزها التجانس إلى أبعد حد ، هذا التجانس الذي يجب أن يربط بين وسائل الارشاد وغاياته من ناحية ، وبين الظروف الاجتماعية والاقتصادية للوسط أو الطبقة التي يراد تطبيق سياسة الارشاد الاجتماعي على أفرادها من ناحية أخرى .

* * *

وهنا نجد أن سياسة الارشاد السليمة ، إنما تهدف الى تحقيق لون من الثقافة الاجتماعية الفذّة ، يعين بدوره على تكوين عقلية اجتماعية متجانسة ، تبث بين عامة أفراد هذا الشعب روحاً عالياً من التضامن الاجتماعي الوثيق ، يجعلهم سباقين جميعاً ، حكاماً ومحكومين ، إلى فهم وتنفيذ كل إصلاح جديد ، وبذلك لا تذهب جهود الهيئات الرسمية ضياعاً ، كما لا تتبدّد جهود بعض الهيئات الحرّة التي تؤدي بدورها خدمات اجتماعية قيمة صرخة في واد .

وليس الأمر هنا ، وبخاصة في مجال الارشاد الاجتماعي العام ، قاصراً على مبادىء أولية أو أسس كلية تكاد تبلغ مرتبة اليقين من عقول المبشرين بها ، بحيث يصح استهداؤها أو بالحري اقتباسها عن الغير في كل وقت أو في كل مناسبة ، بل إنه الى جانب ذلك ، أمر اختبار وتجربة ، بأوسع ما تحمله هاتان الكلمتان من معنى .

فالاختبارات « الذاتية » في هذا المقام ، هي وحدها التي تعلم الأمم ، وإن لم يمنع ذلك بداهة من أن نحاول الاهتداء بنتائج بعض التجارب القيمة التي قام بها غيرنا في صدد مشروع إصلاحي مماثل لذلك الذي نبغي القيام به في بلادنا .

وليس ثمة شك في أنَّ هذه التجارب والاختبارات ذات قيمة ملموسة في توجيه الإصلاح الاجتماعي وجهته السويّة . ولما كان المجتمع المصري يجوز اليوم مرحلة انتقال

جامعة يحتمل أن تتناول بالتبديل الشامل مختلف مناحي حياته ، فإن قيمة الدعاية الاجتماعية القائمة على ضوء الاختبار والتجربة لمن أنفع الوسائل في تقويم نواحي النقص ومكافحة أمراضنا الاجتماعية وأكثرها جدوى في إحداث الأثر المطلوب .

ومثل هذه الدعاية يمكن أن ننعتها بالدعاية الايجابية ، وهي تلك الدعاية التي تنصب على تنوير الأذهان بأساليب سهلة ملموسة ، تستطيع أن تتمثلها أذهان الغالبية من أبناء الشعب. فالدعاية الايجابية ، لو أحسن القيام بها وأتقنت أساليبها ، قمينة أن تحدث أثرها النفسي العميق في الوسط أو البيئة التي يسارع أفرادها عندئذٍ إلى التكيُّف ، ولو تدريجاً ، بالمؤثرات المطوية في توجيهاتها وارشاداتها العملية والنظرية ، ويستجيبون من ثَمَّ ، راضين مقتنعين ، إلى أوامرها ونواهيها ونصائحها جميعاً .

* * *

ولكي نصل بالارشاد الاجتماعي إلى هذه النتيجة المرضية ، يجب ان نُعِدّ سلاحه الأول ، وهو الدعاية الايجابية ، على قاعدة دراسة ذات أربع شُعب ، لنكون قد استخدمنا أحدث أساليب العصر وأكثرها جدوى ، في بعث لون من الحياة الكريمة في رُبوع هذا القطر ، تتفق وماضيه المجيد وتجعلنا نأمل في مستقبل حافل له يبوّؤه مكاناً مرموقاً بين دول العالم المتمدين .

أما القواعد الأربعة التي تقوم عليها هذه الدعاية فيمكن إجمالها في الدراسات الآتية :ـ

ا — الدراسة الاحصائية

ب — الدراسة الاجتماعية المقارنة

حـ — الدراسة السيكولوجية

د — الدراسة التشريعية

وسوف نتناولها بشيء من التفصيل في بحثنا القادم إن شاء الله

جمال الدين حمدي

رئيس قسم الارشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون الاجتماعية

(للبحث صلة)

عقار يشفي الطاعون منذ ٣٠٠ سنة

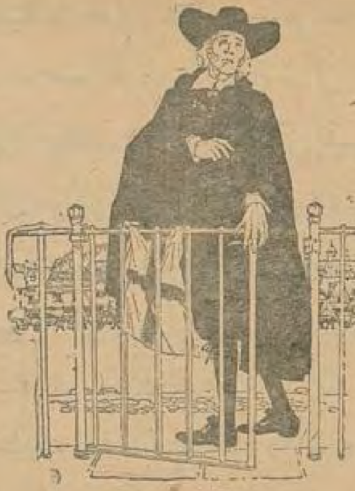

جورج ستاركي

George Starkey

يعتبر العلاج بالكيميائيات من وسائل الاستشفاء الحديثة . ولكن هذه الوسيلة طبقها في لندن « جورج ستاركي » قبل ثلاثمئة سنة . وهو ابن احد رجال الاكليروس في جزر « برمودا »

تعلم ستاركي في جامعة « هرفرد » بأمريكا ، وكانت من الممتلكات البريطانية حينذاك ، وتخرج فيها سنة ١٦٤٠ ، وهبط لندن ومارس صناعة الصيدلة ، وأظهر براعة فائقة وبصيرة نقادة في تجهيز العقاقير الكيميائية ، ومنها الكينا . وذاع صيته لاتساع علمه في « الكيمياء » ، وتوطدت صلاته بكبار كيميائيي عصره .

عندما تفشى وباء الطاعون الكبير في سنة ١٦٦٥ في انجلترا ، بادر الى البحث عن عقار شاف منه ، ويقال انه وفق إلى اكتشاف عقار خاص كان له أثر كبير في الشفاء . فتهافت عليه طلاب الحياة حتى أثقله العمل وأمضه الشغل ، فأثر ذلك في صحته ، ووقع فريسة الطاعون ، وسرعان ما اتصل بالذين هم من حوله يصف لهم كيف يجرعونه الدواء الذي اكتشفه ، ولكن طبيبه المعالج وقع في خطأ ، فمات ستاركي ، ومات معه سر وصفته الكيميائية .

كتب عنه أحد معاصريه : « ان صديقنا ستاركي قد مات متأثراً بذلك الوباء ، ومعه ستة آخرون من أولئك المجانين الذين يمارسون الكيمياء »

وهذه السخرية لم يكن لها من محل ، فان أولئك الذين مارسوا « الكيمياء » في ذلك العصر ، قد اندسوا بين مرضى الطاعون غير عابئين بالخطر الذي يساورهم ، حتى انهم كثيراً ما كانوا يشرحون جثث البعض من صرعى الوباء .

من هذه البدايات الصغيرة نشأ علم التداوي بالكيميائيات ، الذي استطاع أهله ، بعد مضى ٣٠٠ سنة على عصر ستاركي ، ان يتوجوا جهودهم المتصلة باكتشاف البنسلين ، ومركبات السلفا والبالودرين Paludrine

٥ – فى التربية

الدوافع الفطرية الخاصة

– ٨ –

أدَّت أحداث سياسية واجتماعية إلى اتجاه نواحي التربية في مصر اتجاهاً أهمل الدوافع المورمية الحية، واقتصر على الواعية الحافظية الميمية . فقد تجمعت رواسب الفكر العربي في الأزهر ، واستمرَّ معقل التراث العربي حتى أتت الحملة الفرنسية إلى مصر وأسست المجمع العلمي في أغسطس ١٧٩٨ ، ونصت المادة الثامنة منه على السعي إلى نشر العلوم والمعارف الحديثة في اتجاهات أربعة ،هي الرياضيات والطبيعيات ، والاقتصاد السياسي والآداب والفنون ، ووضع جائزتين كل عامين لكتابين أحدهما عن حضارة مصر ، والثاني عن الصناعة فيها ، وجمع مكتبة حوت كتباً أوربية وإسلامية ، وانتهى عهد المجمع بعد خروج الفرنسيين من مصر ، حتى اعتلى محمد علي باشا أريكة مصر وعقد أول مجلس للمعارف ١٨٣٦ ، وأنشأ مدارس مصرية على نمط فرنسي ، ودرس فيها معلمون أجانب حتى عادت البعثات المصرية فتحملت أعباءه . وأغلق عباس الأول معظم المدارس ، وقلل البعثات ، سيما ما كان يتجه منها نحو فرنسا ، ثم ألغى سعيد نظارة المعارف ، وجعلها إدارة ملحقة بدائرته الخاصة . حتى أتى اسماعيل فأعاد البعثات وفتح مدارس البنين والبنات ، ونهض بالتعليم ،ثم ارتبكت أمور مصر المالية وعزل الخديوي ، وتولى الخديوي توفيق ، وحدثت الثورة العرابية ١٨٨١ وتلاها الاحتلال الانجليزي فقضى على التعليم القومي ، وما كان بمصر من تراث قديم يسعى للظهور ، وتراث غربي حديث يسعى للبلوغ بالنهضة غايتها المنشودة .

ومنذ أيام الحملة الفرنسية صارت مصر مسرحاً للتنافس بين فرنسا وانجلترا ، على أن فرنسا أدركت أن العقلية المصرية لم تستجب لحضارتها بحد السيف ، فسعت — بعد خروج

الحملة إلى نشرها بالوسائل السلمية ، ولاقت من محمد علي باشا ترحاباً ، فقد استعان بهم ذلك العاهل العظيم على تنظيم شؤون ملكه ريثما تتفوّق العناصر المصرية ، كما حدث بعد ذلك بقليل . وواصلت فرنسا السعي لدى خلفاء محمد علي ، وبذلت المال وأرسلت علماء مثل ليوبلد چوليان ، وفرير أدريان ، وماربيت ، وماسبرو ، للتنقيب والكشف في مصر ، واتخذت من الميدان الحرّ وسيلة لنشر ثقافتها ، فأرسلت الإرساليات وأنشأت المدارس الأهلية ، فتأسست أول مدرسة فرنسية عام ١٨٤٤ ، وأول مدارس الفرير ١٨٤٥ ، ووهبتهم الدولة المصرية أرضاً بالخرنفش بمصر ، وأنشأت جمعية راهبات الراعي الصالح أول مدرسة للبنات عام ١٨٤٦ ، وراهبات الفرنسيسكان أول مدرسة عام ١٨٥٩ ، وأخرى ببولاق عام ١٨٦٨ ، وثالثة بالمنصورة عام ١٨٧٢ . ولم تنج وهي تؤدي رسالتها من الدوافع التبشيرية . وبلغت هذه المدارس شأواً بعيداً في عهد اسماعيل ، بعد أن أتت بعثات علمانية أنشأها المسيو دوفين ، وافتتحت مدارس الليسيه بالقاهرة والاسكندرية ، وآخرها بمصر الجديدة عام ١٩٣٨ ، وقد حدد هريو ، الذي شهد حفلتها الافتتاحية ، أهدافها ، من احترام العقائد ، ونشر الثقافة الفرنسية ، والدفاع عن حرية الشعوب ، وتسهيل سبل التعليم للمصريين . وقد أنتجت تلاميذ لها ، برعوا في لغتها وثقافتها ، ولم يتقنوا الثقافة القومية المصرية الاسلامية إتقانهم للثقافة الفرنسية ، حتى أشرفت الحكومة المصرية على تدريس اللغة العربية بها .

ويرجع ظهور بوادر النفوذ الانجليزي مصر بعد الحملة الفرنسية وقبل ظهور محمد علي في السعي لاكتساب رضى المماليك بالهدايا في مصر ، كما حدث مع الألفي بك ، والسعي لدى الباب العالي كما فعل سباستياني ، سعياً فشل بظهور محمد علي ، وهزيمة حملة فريزر عام ١٨٠٧ فحذت انجلترا بعدئذ حذو فرنسا ، في نشر ثقافتها بالوسائل السلمية ردحاً من الزمن . فأتت إرسالية بروتستانتية اسكتلندية إلى الاسكندرية عام ١٨٤٠ ، ثم بعثة مس وتلي كريمة أسقف دبلن عام ١٨٦٢ ، وسعت الى تعليم الفتاة ، ونالت إقبالاً بفضل تشجيع الخديوي اسماعيل . وكذلك سعت أمريكا إلى إرسال بعثة لها عام ١٨٥٥ نالت عطف سعيد ، وقد ازداد عددها وانتشرت مدارسها في العواصم ، فبلغت عام ١٩٣٢ اثنين وأربعين مدرسة . على أن النفوذ

الانجليزي الاستعماري بدأ بشراء الانجليز لأسهم قناة السويس عام ١٨٨١ ، وقيام الثورة العرابية عام ١٨٨٢ ، وواقعة التل الكبير والاحتلال في ذلك العام ، فاحتلت انجلترا مصر ، وأطلقت يدها فيها بعد اتفاقها مع فرنسا عام ١٩٠٤ . وأتى الى مصر مستشارون استعماريون وجهوا همهم للقضاء على الثقافة المصرية القومية ، والثقافة الفرنسية ، والسعي الى إحلال الثقافة الانجليزية مكانها فسعى كرومر ودنلوب الى تحقيق هذا الهدف ، وقد فشلا في تحقيقه فشلاً أقرّه جورج ينج ، صاحب « مصر » ، والسير فالنتين تشيرول صاحب « المسألة المصرية » ، ولويد جورج صاحب « مصر منذ كرومر » ، وأدّت القواعد الضيقة الأفق التي وضعها دنلوب للتعليم ما بين ١٩٠٦ — ١٩١٩ ، من تعليم الفتاة ، ومحو الأمية ، وتأهيل الشبان للوظائف ، وإضعاف الفرنسية والعربية ، ومحاولة وضع العامية مكانها ، إلى تبرم المعلمين الانجليز الذين وفدوا إلى مصر للتدريس ، وإلى ظهور رد فعل شديد في مصر

كانت نسبة التعليم عام ١٨٨٣ ثلاثة في الألف ، وعام ١٩٠٧ ثلاثة في الألف ، وكانت نسبة المتعلمين تعليماً أوليًّا عام ١٨٨٢ (١٦٣) في الألف ، وعام ١٩٠٧ ، ثمانية في الألف ، ونجم من ذلك ما كان متوقعاً ، فقد انحطّ شأن الأدب ، ومات النبوغ ، وانعدم التشجيع والتجديد ، واقتصر الأدب على الصحافة ، وما تستدعي من تأليف عاجل قصير ، خضع للكسب المادي واقتصر التعليم ، الذي هدف إلى اخراج موظفين يحسنون الطاعة ، وينفذون كالآلة ، ويحتاجون الى الارشاد الدائم ، على الاستذكار والاستظهار ، والاصغاء والتدوين ، دون بذل نشاط ذاتي ، أو فاعلية وتفكير فردي ، أو عمل شخصي . ولا عجب أن يأتي الخبراء الأجانب في التربية بعد عشر سنوات ، مثل مان وكلاباريد ، فيجدون مرتعاً للعيوب ، وعبثاً من العجز . ولا عجب أن نجد بيروقراطية تدير الأداة الحكومية ، لا تخلو من تواكل وتهاون ، وسآمة في التنفيذ . ولا عجب أن تشكو الجامعات من ضعف في اللغات العربية والفرنسية والانجليزية ، ولا عجب أن نجد بالأدب بقايا الوصولية القديمة في الشعر وغيره . لقد فقد الفكر المصري قواه الابتكارية الحية الدافعة ، واقتصر على الواعية الحافظة ، حتى تحرّر وأرسل البعثات ، وأعاد نظم التعليم ، وسعى سعياً حثيثاً لاعادة الصلات بينه وبين قديمه القومي . وقد بدأ ذلك بظهور ثورات سياسية تنشد الاستقلال ، على يد مصطفى كامل

ومحمد فريد وسعد زغلول ، وثورات دينية واجتماعية نادى بها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وقاسم أمين ، تلت ذلك ثورة فكرية أذكاها لطفي السيد باشا ومحمد حسين هيكل باشا والدكتور طه حسين بك . فأحدثت في الفكر المصري انقلاباً أقرب الى الثورة منه إلى التطوُّر . وكان آخر هذه الثورات إصلاح نظم التعليم ، وهي ثورة جدّ حديثة ، مازلنا نعيش في طياتها . وتسعى إلى إعادة تنظيم مراحله ، ومناهجه ، وأساليب التربية فيه ، من النواحي الفنية ، وعلاج مشاكله الاجتماعية ، من تيسير سبيل التعليم المجاني في كل المراحل ، والسعي للرقي بالشعب إلى مستوى يليق بمصر في الزمن الحديث ، رغم ما يعترض ذلك من صعوبات تخلفت عن الماضي في الادارة والمناهج والروح .

ذكرنا في المقال السابق (١) كيف تهب الحياة الانسان قدرتين ليستجيب بهما الدواعي البيئة ثم عرجنا على مظهر ذلك في مصر اليوم . ونعود فنذكر ان الدوافع الهورمية والاحتفاظية تتشكل في أساليب فطرية خاصة ، تكررت في حياة الجنس فصارت غريزية ، تظهر دون تعلم أو تجريب . فيسميها علماء النفس باستعداد عصبي فطري مورث ، يدفع الكائن الحي نحو سلوك خاص . وان هذه الدوافع الفطرية هي أسس المشاكل التعليمية .

واذا تصوّرنا الحياة شجرة تنقسم إلى فرعين ، هورم وميم ، أو دافع حيوي ودافع احتفاظي ، يتعاونان على حفظ الفرد والجنس ، ثم ينقسم كل منهما أثناء تطور الحياة فتزداد الفروع وتتصل ويزيد تعقيدها ، أمكننا إدراك بعض السبب في تنوع تقسيم الدوافع الفطرية ، تبعاً لدرجة تخصصها . فيقسمها مكدوجل إلى أربعة عشر غريزة ، ظهرت بدائية في صور الحياة الأولى ، ثم دارت حولها النظم الاجتماعية ومظاهرها الحديثة . فبدأت غريزة الوالدية بالعطف على الوليد ، ثم ظهرت في محيط الأسرة فالمجتمع ، وصارت مفتاح ناحية كبيرة من الأخلاق والدين ، من مساعدة العاجز ، ووجود القانون لمعاقبة المجرم . وبدأت غريزة المقاتلة بالدفاع عن النفس والوليد ، ثم الأسرة والوطن ، وبدأت غريزة الاستطلاع بصورة بدائية ، ثم صارت مظهراً للعلوم والفنون ومظاهر الفكر الانساني . ثم ظهرت غريزة البحث عن الطعام لحفظ الذات فالأسرة فالمجتمع . وكذلك غريزة التقذذ والهرب والغريزة الاجتماعية والسيطرة والخضوع والغريزة الجنسية (بمعنى واسع) وغريزة التملك ، وغريزة الحل والتركيب

---

(١) نشر بمقتطف مارس سنة ١٩٤٨

والاستغاثة والضحك . وأتى تقسيم ثورنديك أكثر تفصيلاً ، وقصره فرويد على الغريزة الجنسية ، وجعل مكدوجل لغرائزه ألواناً عاطفية سماها بالانفعال ، يظهر بظهور الغريزة ، بينما رأى دريفز أن الانفعال لا يظهر إلاّ عندما يقف في سبيل الغريزة عائق . وقد تمسك مكدوجل بالانفعال ، واعتبره كامناً ، يظهر تبعاً لدرجة الاهتمام .

ومهما كان من شأن الاختلاف ، فهو سليم في جوهره ، تتخذ الدوافع الحيوية الأولى صوراً فطرية ، ولكي تثمر التربية ، وتصل بالفرد إلى غاية ماتصبو اليه ذاتيته ، لابدّ أن تعمل مع نواة السلوك لا عكسه . فالطفل أقرب إلى السلوك الغريزي ولابدّ من مخاطبته خلال غرائزه ، ولا نعتبره رجلاً صغيراً . ولابدّ من استغلال غرائز حب الاستطلاع والحل والتركيب وغيرها . وتوجه التربية السليمة الغرائز توجيهاً اجتماعيّاً نافعاً ، وتستبدل ما لا يستحب منها بغيره : ولكل غريزة موسم ذهبي تبرز فيه بوضوح ، ففي سن الصبا تظهر الغريزة الاجتماعية وحب الاقتناء والجمع ، والانسان أعلى في مراتب التطور من الحيوان في الذكاء ، لذا توجه الغريزة الواحدة إلى اتجاهات كثيرة ، أنتجت فروع المعرفة الانسانية . والانفعال ركن هام في ميدان الجماليات ، من فنون الادب والموسيقى والنحت والتصوير ، وخلاله يربى الذوق ويصقل ، بالإيحاء والإستهواء والتدريب ، فيتحقق بذلك قول أفلاطون « التربية الحقيقية هي التي تجعلنا نحس اللذة والألم نحو الأمور الحقيقية في الحياة »

واذا كان للغريزة مظاهر إدراكية فكرية ، ومظاهر انفعالية ، ومظاهر نزوعية ، فليس المظهر الادراكي لها بأقل شأناً من المظهر الانفعالي . فاستخراج المقاييس العامة للأشياء ، وتحليلها وتعليلها ، ونقدها دون املاء أو فرض يساعد على تذوق مظاهر الحياة .

ويساعد النزوع على تحقيق الأهداف المثالية ، فمن يعرف الموسيقى يستطيع تذوق جميلها ، ويستطيع من يؤلف أن ينتقد فلا يستأثر الكاتب بالسلطان ويهبط إلى قارئه من عل . كذلك يفتح ميدان الابتداع في الرسم والتأليف . وفي المدرسة ميدان ظهور الموسيقي النابغ ، والكاتب الذكي ، والشاعر والفنان ، واذا ما يسرت المدرسة لأبنائنا الميدان الصالح ، وقلّ ما في المناهج من حشو ، ولاقى النابغ الصغير من العطف والتشجيع ما يساعد عبقريته على النمو ، وذاتيته على البلوغ حدّ الكمال . وكم من مواهب تذهب ادراج الرياح لما في المدرسة من عيوب المناهج والمواد الدراسية وطرق التعليم ووسائل الإدارة والتفتيش ، وكم في المجتمع من عقبات مادية ومعنوية تحول دون ظهوره لو برز في مدرسته

(حماه) محمود حامد شوكت

في اتلانتك ستي

أتلانتك ستي إحدى عرائس الاطلنطي في ولاية نيوجرسي الامريكية اشتهرت بجمال موقعها ومناظرها وبجوها البديع ، وتميزت بطريق الالواح الخشبية المطل على الشاطىء حيث ينعم بالمشي عليها المتنزهون وقد قلبت الانوار الخاطفة ليلهم نهاراً وخلقت لهم عالماً من الاحلام)

لمنْ يهدرُ البحرُ الحبيبُ وقد مضتْ   حياتي ، ولم أستبقِ غيرَ خيالي؟
وقد كان أيامَ الشبابِ معللي   وكان نديمي ، لا نديمَ رمالِ
وأنفقتُ أيامي عليه فردَّها   من البِشرِ أضعافاً بغير سؤالي
أيدعو إلى الذكرى عواطفَ شاعرٍ   تلاشتْ على تعذيبهِ المتوالي ؟
ولو بُعثت ، أنى له بشبابه ؟   وأنى له بالحبِّ بعدَ زوال ؟
أهذا هديرُ السحر في شاطىء الهوى   فليس محالاً فيه أيُّ محال ؟
تسمَّعتهُ نشوانَ ألمسُ فابري   كما لمسَ المخمورُ وهمَ ليالِ
وما كان بالاعجازِ أو سكرةِ المنى   فليس بسالٍ كلُّ من هو سالِ
وقد يكمنُ الفنانُ في قلبِ راهبٍ   كما يكمنُ الاشعاعُ طيَّ جبالِ
فألفيت نفسي في الشباب مجدداً   أعبُّ من النور الشهي حيالي
وأشربه ألوانَ أنسٍ وبهجةٍ   تعالت ، ولم تبخلْ برغم تعالِ
وهذي عروسُ الماء لم تدخرْ حلىً   على الليلِ ، حتى الليلُ أزهر حالِ
أعدَّت لدى البحرِ الطروب طريقنا   على جمعِ ألواحٍ نعمنَ غوالِ
(سفينةُ نوحٍ) تلك أم حلمُ شاعرٍ   تملكَ فيه الحسنُ كلَّ مجالِ ؟
وتغبطُ الآلافُ فيها حبيسةً   ولا تعرفُ الأشواقُ أي ملالِ
تروحُ وتغدو ، لا ترى الوقتَ عابراً   وليس سواهُ بالوجودِ يُبالي
وما تشتهي أرضاً تلوذُ بيبسها   كما اشتاق (نوح) في زمانِ ضلالِ
فكلُّ الذي تعطاهُ صفوٌ معبراً   وكلُّ الذي تخشاه حُلو دلالِ
تدفقَ فيها النورُ من كل جانبٍ   إلى أن تراءى بعضه كظلالِ
وعشش فيها الحب حتى كأنما   تغذَّى وغذَّانا بكل جمالِ !

(اتلانتك ستي)

احمد زكى أبو شادى

خصائص الفن الاسلامي

-٢-

لريتشارد ايتنجهاوز (١)

سار التمويه في أشكال الزخارف جنباً إلى جنب مع مميزات الفن الاسلامي، وهو اظهار الأشياء في غير حقيقتها أو عكسها فتظهر إما متداخلة أو تحور الحيوانات إلى زهور أو إلى فروع نباتية ملتوية (أرابسك) أو تظهر الخطوط الهندسية الدائرية مستقيمة أو العكس ، فمثلاً العقاب المرسوم على صحن من الخزف والمحفوظ في متحف اللوفر لا يظهر على شكل حيوان منبسط ذو بريق معدني فحسب بل ترى هذا الحيوان تحوّل ذيله إلى شكل نباتي ينتهي بأرابسك ويتدلى من منقاره فرع نباتي . ومن أهم التحف المميزة للفن الاسلامي ذلك الطبق المشهور بنسره الذي اكتشفه العلامة هرتسفيلد في مصر ، فلا يظهر الطائر مجرداً أو مطلياً ببريق معدني وإنما يتحوّل في بعض أجزائه إلى شكل نباتي على أرضية عميقة ، وفي هذا المثل يصير الرسم شكلياً ، وإذا قلب إلى أعلى اتخذ شكل ورقة نباتية كبيرة مسننة محوّرة ، وتذكرنا هذه الظاهرة بالحالة التي كان عليها التصوير الفارسي وذلك من سؤال وجهه أحد المصورين الفرس إلى الفقيه ابن عباس عام ٦٨ ه وقد عاش هذا المصوّر في وقت لم يكن التعصب نحو تحريم التصوير ظاهر فيه فقال أيمسك الانسان عن رسم الحيوان ، وكيف يحصل على معاشه إن أمسك ؟ فأجابه ابن عباس أنه يستطيع أن يرسم الحيوان بعد قطع رءوسها وتحويرها تحويراً نباتياً — وفي دار الآثار العربية قطعة من الخشب الفاطمي حفر عليها رسم حصانين على شكل أرابسك (شكل ١) ، و هناك آلاف

---

(١) مترجم من كتاب الادب العربي لفيليب حتي وآخرين طبع بمطبعة جامعة برنستون بنيوجرسي سنة ١٩٤٤

الأمثلة التي تحورت فيها الرسوم الهندسية المستقيمة إلى خطوط دائرية بشكل مفاجيء .

وهناك رسوم لوحدات زخرفية مستقلة يمكن أن يكون كلٌّ منها شكلاً قائماً بذاته لكن الفنان المسلم تمكّن أن يستغل هذه الوحدة الزخرفية ، فأعاد رسمها بجوار بعضها بشكل غير محدود وهذا التكرار أدّى إلى أهم مميزات الفن الاسلامي ومنها رسوم الأرابسك الغير متناهية (شكل ٢) والأشكال الهندسية المتعددة الأضلاع وينتمي إلى هذه المجموعة الحيوانات السلجوقية ، المتتابعة على أرضية نباتية لا نهاية ولا بداية لها ، وتوجد خاصة أخرى في أمثلة كثيرة وهي ظهور الجامات على جلود الكتب والسجاجيد وتدل أرباع الجامة أو المنطقة المرسومة في الأركان سواء أكانت شبيهة أو غير شبيهة بالمنطقة الوسطى أنه كان يمكن رسمها في كل اتجاه لولا أن الأطار الخارجي حدد الجزء المطلوب رسمه منها .

* * *

أدّت احدى نتائج البحوث في الفن الاسلامي إلى محاولة الفنانين رسم الكائنات الحية ذات الأبعاد الثلاثة بطريقة غير واقعية .. وكان استعمال البريق المعدني ظاهرة واضحة في هذا الميدان . ووجدت طرق أخرى لاظهار الشيء على غير حقيقته . وقد أشار العالم ماسينو إلى أهمية هذه الظاهرة في الفن الاسلامي الذي امتاز بالتغير الدائم حيث لا دائم إلاّ الله ولا يتحقق دوام الله إلاّ بتغير الأشياء . وتدلنا قصة سيدنا إبراهيم على كيفية استدلاله على وجود الله ودوامه عندما رأى النجوم والشمس والقمر في تغير دائم — وهذا أول دليل على بقاء الله ، ويظل هذا الاعتقاد في الدين الاسلامي والفن معاً . والدليل الحي على ذلك ما نجده على شواهد القبور وفي ضريح الغازى الكبير تيمور في شريط الكتابة الكوفية الرئيسي كلمة « لله البقا »

ونجد أثر هذه الظاهرة في استخدام بعض المواد كالجص والطين واللبن والصوف وغيرها ليس لغرض التزهد وعدم التبذير وإنما لشعور الفنان بأن كل شيء في هذا العالم وخاصة ما تنتجه يده من صناعة مآلها الزوال

وكان لإنكار العلاقة السببية للامور الدنيوية أثر كبير ليس فقط فى العقائد الدينية فحسب وإنما في الناحية الفنية أيضاً . فقد حصلنا بدلاً من الظواهر الطبيعية على اعتبارات

عادية للأشياء نتيجة خلق مجموعة أفعال كونية تتكرر وقائعها باضطراد وحدتها الذرّة الزمنية ، فشطرت الزخارف شطراً فرضيـّاً الى وحدات صغيرة ورسمت بحرية مكنت الفنان من تغييرها أو رسمها رسماً معكوساً .

ولا توجد ثمة علاقة بين هذه الجزئيات والمنظر العام الذي شطرت منه كما هو واضح في سجادة تتويج ملك في القرن (١٦) فكل جزء منها مستقل عن الآخر وتظهر هذه الصفة جليّة في الجرّة ذات البريق المعدني التي في مجموعة الدكتور هرش أو القدر الموصلي المعدني المشهور في مجموعة بلاكاس في المتحف البريطاني حيث لا نجد علاقة مباشرة بين كل منها ووحداته الزخرفية الصغيرة . ويناظر هذا الاتجاه الذري اتجاه آخر مشابه في الأدب من مقامات الحريري حيث لا ترتبط كل مقامة بالأخرى في المعنى — ولذلك تعدّدت هذه المقامات التي تبلغ الخمسين ومن الممكن زيادتها — وعلاوة على ذلك لا يوجد لكل مقامة مكان خاص في الكتاب وإنما تربط بينها شخصيات أبو زيد والحارث بن همام ، كما أن الملك في جرّة بلكاس هو الحلقة الرابطة في الصورة التي عليها .

وقد أسفر التحليل الدّقيق لخصائص الفن الاسلامي على اختلافه عن طرق أمكن بها التغلب على الصعوبات التي واجهتها . فرسمت جميع الأشكال رغم تحريمها . ومع ذلك بقي سؤال واحد هو هل لم تبقَ ظاهرة فنية واحدة استحدثت لم يشملها التحريم؟ تقودنا الاجابة على ذلك الى شكل آخر له صفات ومميزات ايجابية ويمكن تسميته في الفن الاسلامي « الطرز المختلفة للكتابة العربية » وقد استخدمت هذه الظاهرة الفنية المكانة الفريدة التي يحتلها القرآن الشريف وهو النسخة العربية من الكتاب السماوي وهو معين الوحي وأسلوبه لا يقلد، وهو أزليّ غير مختلق. واستخدام آيات منه كبيرة أو صغيرة داخل المساجد أو بعض المباني المختارة أو على بعض قطع كبيرة احتل نفس المكانة التي كانت تستخدم فيها بعض النصوص القديمة المقدسة وخاصة فيما يتعلق بحياة المسيح في العالم المسيحي . ويوازي ما في الاسلام من تجديد ووحدة ما في المسيحية من تعدد واختلاف الوحدات .

وتظهر الكتابة العربية كنوع من الزخرفة الاسلامية في أروع المباني الأثرية وأحطها

فقام الفنانون الأميون بتكرار بعض الحروف الهجائيـة بقصد الزخرفة على النوع الثاني — أما النوع الأول فإننا نجده مثلاً في مسجد أو مدرسة سلجوقيـة حيث كتب الخط الـكوفي الـكبير الحجم على طول الجدران الأربعة الداخليـة أسفل منطقة الانتقال من المربع الى القبة كما تفصل بين الأشكال الزخرفية والمعمارية المتنوعة في كل من النصف السفلي والعلوي من المربع والقبة. ونجد هذا المثل على الأبنية الفاطميـة كواجهة جامع الأقمر حيث يحيط شريط الـكتابة الـكوفية المحاريب المعمارية التي تملأ واجهة المسجد وفي كلا النوعين يُضفي شريط الـكتابة على المباني وحدة واعتدالاً بصفة عامة .

ومن الواضح أن الـكتابة العربية خير ما يناسب المحاريب من الزخرفة على أن يراعى عند تغطية هذا الجزء المقدس بتربيعات القاشاني ذات البريق المعدني أن تكون الـكتابة الـكوفية زرقاء قاتمة وبارزة حتى تظهر واضحة على هـذه الأرضية ذات الزخارف والبريق المعدني فلا يتغير شكلها ، وفي هذه الحالة يجب أن يظهر لفظ الجلالة كما يجب أن يحافظ على شكله من تداخل بعض العناصر الزخرفية النباتية والهندسية والأرابسك على قوائمه حتى لا تطغى عليه فتقلل من وضوحه ، وتعذر منذ عهد الميروفنجيين Merovingian استعمال الـكتابة بأشكالها الآدمية والحيوانية في الغرب وخاصة على المعادن .

وتفسر الصورة الانسانية على أنها تقليد للخط العربي ، فأوضح محمد الهيثمي في كتابه « هداية المحبين» أن الله خلق الانسان شبيهاً باسم محمد بالخط الـكوفي فخلق الله آدم وشبهه بحروف من إسمه فالرأس كالميم واليدين كالحاء والبطن بالميم الثانية والقدمين بالدال.

وتبعاً لاتساع رقعة البـلاد الاسلامية كان من الطبيعي أن تكون لبعض هذه الممالك مميزات وطابع اسلامي فني خاص وخاصة بعد الحركة الانفصالية التي أعقبت تقسيم الخلافة العباسية الى وحدات صغيرة .

تحرَّرت فارس من القرن ١٣ الى ١٦ وبرزت في فنها محاولة عاطفية صوفية في صورها المتنوعة، وليس أدل على ذلك من توضيح المنظومات الخمس لنظامي بالصور ورسم الأفراد والأميرات وحولهم الأتباع في مناظر طبيعية ساحرة ومواقف جميلة رائعة وتعيش الجماعة في الصورة في عالم سحري معزول تتقدمه جدول ماء والى الخلف منهم منظر جبلي . ومن

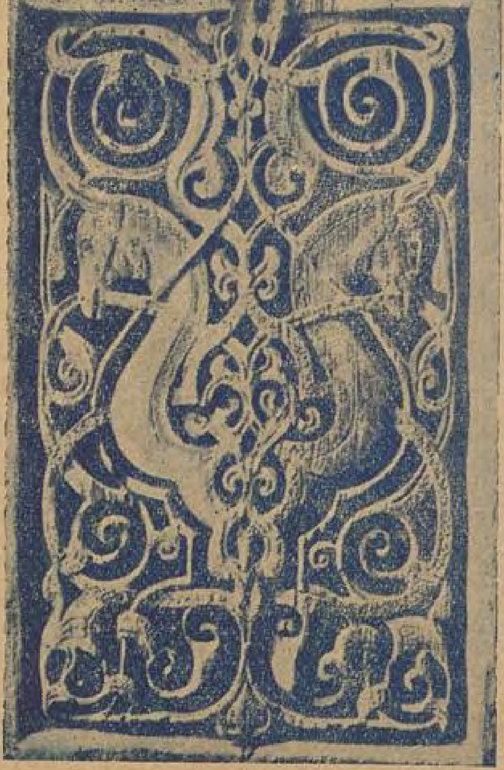

ش ١ — حشوة خشبية بدار الآثار العربية من العصر الفاطمي
تاريخها القرن التاسع

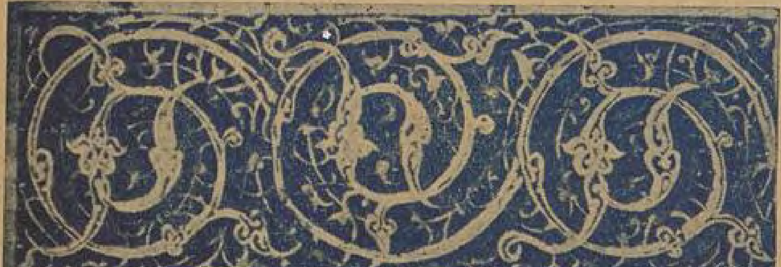

ش ٢ — فروع نباتية ملتوية وأوراق نباتية تعرف بالارابسك

المحاولات التي تخلص منها الفنان من القيود السابقة رسمه سجادة كبيرة تمثل مناظرها الجنة وحورياتها بين شجيرات خضراء جميلة وحدائق من زهور منثورة في الصحراء . وتختلف هذه المناظر عما نجده في مصر . ففي العصر الأيوبي والمملوكي اكتمل نمو الفن والصناعة التي تمثل مظاهر الحياة الاسلامية والروحية والسياسية فنجد المدرسة أهم المباني الأثرية في هذا العصر ويشغل أهم جزء فيها ضريح السلطان الذي أنشأه قبل موته واستعملت في زخرفته مواد أكثر صلابة كالرخام بدلاً من الجص الذي كان شائعاً في ايران . وأهملت صناعة الفخار في هذا العصر لاستعمال البرونز المكفت بدله . وإذا استعمل الخزف فاننا نجد النوع الأسود تقليداً للاواني المعدنية المحفورة . وتبرز الوحدات الهندسية والمتعددة الأضلاع في الزخرفة وتحل محل الطرز النباتية الايرانية الرشيقة لملاءمتها للحياة التي كانت صائدة هناك .

هذا الاختلاف الاقليمي بين الشعوب يدل على اختلاف وجهات النظر الاسلامية في كل منها ، ومهما كان هذا الاختلاف بين هذه الأقاليم فانه يسود الجميع طابع اسلامي عام دائم لا يتغير .

ولم يؤثر احتكاك العالم الاسلامي بأوربا في المظهر الأساسي للفن الاسلامي إلاَّ نادراً جداً وإن أي تغيير في المظاهر الأساسية للاسلام كما حدث عند ترجمة القرآن إلى لغات غير عربية وحروف غير حروفه المنزلة وجه الفن الى محاكاة الطبيعة وأدخل التصوير في السجاجيد وعلى صناديق الأقلام وغيرها وابتعد الفن الاسلامي عن أصوله التي نشأت معه واصطبغت بصبغة جديدة خطيرة .

محمد رجب البيلي
دبلوم في الآثار الاسلامية

❖ استدراك — جاء في مقتطف شهر مارس ١٩٤٨ في مقال خصائص الفن الاسلامى

الصفحة	السطر	ما صحته
١٨٩	٥	بلغة كلٍّ
»	٩	خارقة
١٩١	٤	أن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله
١٩١	١٥	أصبح
١٩٢	٦	تكررت الكلمات الآتية (عن حفل عرس به صور وتتحدث الكتب المقدسة الاسلامية)
١٩٢	١٣	الفنى
١٩٣	٩	بيرونسك

أنطون الجميّل

١٨٨٧-١٩٤٨

فتشت عن مصدر حديث العهد منا أرجع فيه الى حياة أنطون الجميّل قبل أن زفّه لبنان الأشم الى مصر الوادعة المطمئنة المرتفعة الأهرام ، فلم أجد إلاَّ سطراً أو سطرين لا تشفي غلة باحث ، ولا تسد حاجة دارس ، وإذا « بمعجم المطبوعات العربية » لسركيس يقول عنه ولا يزيد : (محرّر جريدة البشير ومدرّس البيان في كلية القديس يوسف في بيروت ومنشىء مجلة الزهور بالقاهرة) . وإذا « بتاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين » لمؤلفه الأب لويس شيخو اليسوعي لا يعدو أن يقول عنه في ثلاثة أسطر ! (محرّر البشير والزهور) . نشر في بيروت « البحر المتوسط » وفي مصر « أبطال الحرية » و « منتخبات الزهور » و « السموءل أو وفاء العرب » و « الاقتصاد والنظام في المنزل » و « تعريب كتاب السيدة دوبوك — الفتاة والبيت ») وإذا « بتاريخ الصحافة العربية » للفيكونت فيليب طرازي يشير إليه في كلمة واحدة على أنه كان محرّراً في صحيفة « البشير » السورية في ذلك الزمان . أي في العقد الأول من القرن العشرين .

ومؤرّخ الأدب معذور إذا وجد غموضاً أو اضطراباً في نشأة الأدباء والشعراء الذين يترجم لهم في عصور بعيدة العهد منا ، ولكن أي عذر لنا نحن المحدثين ونحن نترجم لأدباء أعزّة علينا قريبين منا ، فنروح نكشف النقاب عن حياتهم الأولى فلا نجد المراجع تسعفنا بما نطلب أو تمدّنا بما نشتهي من احاطة بحياتهم ونفوذ الى أعماق نشوئهم .

ولو أنّ الأديب أو الشاعر يترجم لنفسه على طريقة الـ « Autobiography » عند الغربيين لاستراح المترجمون من كثير مما يلقونه من العنت . وقد صنع ذلك الشاعر محمد الأسمر حين ترجم لنفسه في مقدمة ديوانه « تغريدات الصباح » فعرض نفسه كما صنعه الله وكما مرّت عليه الحياة ، فأراح بذلك السائلين — بعد عمر مبارك — عن نشأته ومحيطه الذي عاش فيه .

انطون الجميّل

واذا صحّ ما ذكر أن أنطون الجميّل ولد في بيروت سنة ١٨٨٧ فانه يكون أصغر من تولوا تحرير « البشير » سنة ١٩٠٨ — أي أنه عهد إليه بتحرير هذه الصحيفة المعتدلة المتزنة وهو في الحادية والعشرين من عمره . ويكون كذلك أصغر الاساتذة الذين تولوا التدريس في كلية القديس يوسف ببيروت ، لأنه اشتغل بالتعليم قبل اشتغاله بالتحرير . وأظن ما ذكر أنه نزح الى مصر سنة ١٩٠٧ يحتاج الى شيء من التصحيح ، لأن الثابت من سجلات صحيفة البشير أنه تولى تحريرها سنة ١٩٠٨ وأنّ الانقلاب العثماني حدث في العام نفسه ، فتكون هجرته الى مصر بعد ذلك التاريخ ! والرّاجح أنها كانت في سنة ١٩٠٩ .

ولا شكّ أن مواهب أنطون الادبية والخلقية قد ظهرت في أول حياته وجذبت إليه الأنظار ممن يقدرون قيم الرجال . ويدل على ذلك اختياره لتحرير صحيفة البشير ، فقد كانت — كما يقول مؤرخ الصحافة العربية — من أرقى الجرائد التي يركن الى صحة أخبارها وصفاء مبادئها واخلاص خدمتها للآداب والعلم والوطن . وكانت من أقدم الصحف اللبنانية أنشأها الأب أمبروسيوس مونو رئيس الآباء اليسوعيين في سورية سنة ١٨٧٠ وكان غرضها دينيًّا أول الأمر وعبارتها ركيكة كبقية صحف ذلك العهد ، وكان لا يقرؤها إلاّ جماعة الكاثوليك لأنها لسان حالهم . فلما تولى الأب سليمان غانم رياستها والأديب خليل البدوي تحريرها ١٨٨٢ — ١٨٩٠ ظهر تجديد في عباراتها واتجاهها الأدبي حتى صارت مقروءة من المسيحيين وغيرهم . وجرت العادة أن يتولى ادارتها أب من رجال الدين وتحريرها نابغ من رجال الادب . فاذا رأيت في ادارتها الأب أنطون صالحاني والأب هنري لامنس والأب لويس معلوف رأيت في تحريرها يوسف البستاني وخليل البدوي ورشيد الشرتوني وأنطون الجميل الذي أسلم تحريرها بعده إلى الخوري بولس طعمة الذي كان من كتّاب مجلة « المشرق » المحققين ،

* * *

وكانت هجرة أنطون الجميّل إلى مصر طلباً للحرية كما نزح إليها كثير من الاحرار اللبنانيين فوجد فوق ثرى مصر السماء التي تتردد فيها أغانيه حرة طليقة من القيود . ومصر كانت — ولا تزال — ملجأ الأحرار ممن تتسع البقعة الكريمة من الارض لأحلامهم وآمالهم .

فانطلق أول نغم له بالحرية في مسرحية صغيرة أسماها «أبطال الحرية» تولت مطبعة المعارف بالفجالة طبعها على نفقتها سنة ١٩٠٩ وجعلت شعارها العلم التركي بهلاله الواحد ونجمته الواحدة وتحتها الكلمات التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية: — الحرية، المساواة، الاخاء. وقد كان أنطون الجميّل معجباً بهذا الانقلاب العثماني الذي كان الدستور نتيجته، ومعجباً بأبطال هذا الانقلاب وخاصة «نيازي» و«أنور» اللذين كانا بطلي مسرحيته.

والمسرحية في ذاتها صغيرة الحجم بسيطة الحوادث ليس فيها ما في المسرحيات من براعة الحوار وحبكة الحوادث، ولكن فيها حسن الانشاء وجودة السبك والاعتماد على العنصر الخطابي. ولكنها على الرغم من بساطة الفن المسرحي فيها لقيت ترحيباً كثيراً من الصحافة العربية والتركية والاوربية، وأثنت عليها مجلة «اجتهاد» التركية وترجمت قسماً كبيراً منها نشرته مع صورة للفقيد العظيم.

وقد مكّن تضلع أنطون الجميّل من الفرنسية أن يلفت إليه أنظار الصحافة الفرنسية فاشتغل محرراً في جريدة «البيراميد» التي كانت تصدرها دار الاهرام، وكان ذلك أول اتصال للفقيد بهذه الجريدة

وإذا كانت الصحافة قد جذبت أنطون الجميّل إليها في جريدة «البشير» بعد اشتغاله بالتدريس فانها جذبته من جديد في مصر إلى صحيفة «البيراميد». ثم جذبته ثالثة إلى إنشاء مجلة أدبية، فكانت مجلة «الزهور» التي ظهر أول أعدادها في أول شهر «آذار» أو مارس سنة ١٩١٠. فكان ذلك توافقاً لطيفاً بين اسمها وبين شهر الربيع الذي تفتحت فيه للحياة...

ولما عمل موظفاً في الحكومة المصرية ابتعد عن الميدان الصحفي إلاّ ما كان له من بحث أدبي هنا وهناك. ولكنه حنّ الى الصحافة أو هي حنت إليه، فأسندت اليه رياسة تحرير «الاهرام» في سنة ١٩٣٢ ومازال فيها حتى فجأه الموت في صباح الثلاثاء ١٣ يناير سنة ١٩٤٨ وهو عائد من عمله الذي فني فيه كما تفنى الفراشة حول الضوء اللامع حين يغريها بلهيبه البرّاق ونوره الوهّاج.

وعجيبٌ جداً أن يتولى «الجميّل» ثلاثة ألوان من الصحافة في ثلاثة عهود مختلفة من

عمره فيجيد كل لون ويبرز فيه وتنبغ له فيه شئون . فقد تولى الصحافة الدينية في صحيفة « البشير » اللبنانية ، وتولى الصحافة الأدبية في مجلته الشهرية « الزهور » فكانت روضة من رياض الأدب الرفيع النزيه العفيف في ذلك العصر ، وتولى الصحافة السياسية في جريدة « الأهرام » فكان فيها سياسيًّا من الطراز الذي سماه « حسان بن ثابت » الشاعر المخضرم بالطراز الأول .

***

لقد صدق القول المشهور : « كلٌّ ميسرٌ لما خلق لهُ » . ومكلف الانسان ما ليس من طبعه متطلب جذوة النار في فيض من الماء . فقد أراد (الجميّل) أو أريد له أن يكون « معلماً » أول الأمر ولكنه لم يمض في الشوط الى نهاية . ولم يجر في هذا الميدان الى غاية . وقد أراد « الحجّاج بن يوسف » قبله أن يكون معلماً ، فأرادته الأقدار أن يكون حاكماً من طراز شديد . وأراد « حافظ ابراهيم » أن يكون ضابطاً في الجيش فأرادته الأقدار أن لا يمضي في الميدان الى آخره ، وجعلته صاحب لسان لا رب سنان . ولم تكن الصحافة عند « الجميّل » سياسة فحسب أو لعباً بالورقة الرابحة في ميدان يكثر فيه اللعب بالأوراق والاصطفاق بالأرزاق في الأسواق ، ولكن الروح الأدبية كانت تمشي معه في الصحافة جنباً الى جنب . فهو أديب مشرق العبارة واضح الفكرة حسن العرض ، أعانته على مهنته الصحافية سليقة أدبية وثروة مذخورة من المصر بالأساليب العربية التي تعرض الحقائق في ثوب محكم النسج رقيق الحاشية .

وما أشبه « الجميّل » في الصحافة بملاّح ماهر يعرف كيف يمخر بسفينته عباب بحر مضطرب لجيّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ ، فهو يداور الريح . ويداور الموج ويحتال على هذا مرة وعلى ذاك أخرى ، ولا يفقد اتزانه في وسط العاصفة حتى تمر بسلام . ولهذا لم يُعرف بتحزب ولم يُرم بتعصب ، بل كان يمقت الحزبية مقتاً شديداً ويرى أنها سبب ما نحن فيه من بلاء واضطراب . وكان يرى الحزبية قيداً للحرية . وقد أشار الى ذلك في مقدمته التي كتبها لديوان الشاعر « وليّ الدين يكن » حيث يقول : (كنت أود أن ألم بالدور السياسي الذي لعبه الفقيد في الاستانة ومصر ، ولكني أخشى أن أنبع مرغماً في

العيب الفاشي بالناس . وهو أن يقسموا موتاهم حسب أحزاب أحيائهم . فحسبي أن أقول إنه كان حرًّا في سياسته كما كان حرًّا في كتابته) .

* * *

والحديث عن مقدمة « أنطون الجميّل » لديوان الشاعر وليّ الدين يكن يسوقنا الى الحديث عن ناحية أدبية عند هذا الأديب الكبير . فقد اشتهر ببضع من المقدمات كتبها وقدم بها بين يدي جماعة من الشعراء والكتّاب ، فكتب مقدمة تحليلية لوليّ الدين يكن في أول ديوانه الذي طبع بمطبعة « المقتطف والمقطم » سنة ١٩٢٤ ، وكتب مقدمة لديوان الشاعر « اسماعيل صبري باشا » الذي طبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨ . وهذه المقدمة هي الكلمة التحليلية التي ألقاها في تأبين الشاعر سنة ١٩٢٣ . وكتب مقدمة لديوان « شاعر البراري » الذي عنوانه « بين أحضان الطبيعة » والذي طبع سنة ١٩٤٢ . وكتب مقدمة لديوان الشاعر « محمد الاسمر » الذي عنوانه « تغريدات الصباح » والذي نشرته « دار المعارف للطباعة والنشر » سنة ١٩٤٦ . وكتب مقدمة لديوان « من وراء الأفق » الذي نشرته دار المعارف لي سنة ١٩٤٧ ، وكتب مقدمة لكتاب « ما قلّ ودلّ » للكاتب أحمد الصاوي محمد . وهي كثرة دفعت بعض الكتّاب الى تسمية الفقيد « بكاتب مقدّمات الكتب » . وما كان عيباً أن يتولى الجميّل تقديم الأدباء أو إنصافهم من زمانهم ، فقد عُرف بالنصفة في الرأي والاعتدال في الحكم والرقة في النقد الى حد لا يجرح المنقود ولا يعنف عليه . ولكنه نقد رفيق رقيق ، ولا أنسى أنه كان يأخذ عليّ السهولة في عمل الشعر ويحذرني منها « لأنّ السهولة في الغالب مزلقة الى الأخطاء » كما كتب — رحمه الله — في مقدمته لديواني . وهذا نقد رفيق لم يغضبني بل حفظته يداً أعتدّها « للجميّل »

واسمع نقده الرفيق لبعض ألفاظ الشاعر « الأسمر » في مقدمته لديوانه : — « أما اذا ترك عالم الأحلام والأماني وعاد الى عالم الحقائق المجردة فانه لا يتورّع عن اقتناص اللفظة الواقعية وان كان الشعراء قد تواضعوا على نبذها من لغة الشعر » . ثم يمثل لذلك بقول الأسمر في ديوانه : . .

واخلعوا الارسان لستم (حُمُـرا)   واطرحوا النير فلستم (بَقَـرا)

أليست هذه النعومة أو الـ « Finesse » هي أهم خصائص الأديب الناقد الذي لا يتخذ النقد هراوة غليظة يضرب بها رؤوس المنقودين فينفر الناس منه ومن نقده الثقيل الشديد كالرصاص والحديد ؟؟

* * *

ولم يكن « أنطون الجميّل » كاتباً أديباً فحسب ، ولـكنه كان خطيباً عرفته منابر الأدب في القاهرة في كثير من المناسبات. وما عرفته يرتجل الكلام على المنبر أو يقوله على البديهة كما يفعل الخطباء المرتجلون ، ولـكنه كان يعد كلامه إعداداً ويلقيه من فوق أعواد المنبر القاء فصيحاً رشيقاً بيناً في تؤدة وأناة، حتى يستطيع سامعه أن يتابعه فلا يمل . وما كان أبرعه وهو يضفي الفكاهة الحلوة على خطابه فيثير في السامعين عاصفة من الضحك ويشيع فيهم جوّاً من المرح .

ألقى مرة حديثاً أو محاضرة في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية يوم ١٦ ابريل سنة ١٩٣٦ عنوانه « صانعو الجريدة » تجمع عن الصحافة وأوعى . ولـكنه كان يرسل الفكاهة من حين الى حين ، فذكر من أنباء التطبيع أو التصحيف في الطباعة أن عبـارة « تجديد شباب القضاء » قد حرفها العامل إلى « تجريد ثياب القضاة » !

وكان يتخير في خطبه ومحاضراته أطرف المناسبات مما توحي به بديهة حاضرة أو خاطر سريع . خطب مرة في تأبين الشاعر اسماعيل صبري باشا وكان الحفل في ليلة من ليـالي التمام للقمر ، فابتدأ الـكلام قائلاً : — (إذا رأينا القمر ساطعاً في كبد السماء — كما نراه في هذه الليلة — لا نتساءل من أين أشرق على الدنيا ...) . وحاضر مرة في الجمعية الجغرافية عن الصحافة فقال عن الصحفيين الجوالين المتنقلين إنهم يضربون في كل جهة من المدينة وفي كل مدينة من القطر .... وما أشد ما تنطبق عليهم الآية الكريمة المنقوشة أمامكم في صدر هذه القاعة « هو الذي جعل لـكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها » . وقد لفتت نظره هـذه الآية منقوشة على جدار القاعة فاستغلها لموضوع محاضرته .

كان « الجميّـل » كثير التدقيق لمـا يكتب كثير التدقيق فيما يطبع . وكان يحدثني أنه يود أن يرى الـكتاب العربي خالياً من أخطاء الطبع . وقد أخذ نفسه بهذا حين أصدر مجلة « الزهور » سنة ١٩١٠ فهي المجلة العربية التي كاد ينعدم فيهـا الخطأ المطبعي ، وتحا كيها في

ذلك مجلة « الضياء » للعلامة الشيخ ابراهيم اليازجي. وقد ظهرت هذه الدقة في كثير من نواحيه. فقد كان دقيقاً في مجلس الشيوخ حينما كان مقرراً للجنة المالية، وكان دقيقاً في التعبير حين يعالج مسألة سياسية في الاهرام، وكان دقيقاً حين يورد الاحصاءات. وكان دقيقاً حين يستشهد بالشعر. فيتحرّى أصح الروايات فيه، وينسبه الى قائله نسباً صحيحاً مهما كلفه ذلك من عناء في البحث عن قائله. ولا أظن التوفيق خانه في نسبة شعر الى شاعر إلاّ مرة واحدة في المقدمة التي كتبها لديوان « وليّ الدين يكن »، فقد نسب بيتين الى « ابن الرومي » وهما من شعر « مهيار الديلمي » في قصيدته البائية التي يقول فيها:

لا تخالي نسباً يخفضني   أنا من يرضيك عند النسب

* * *

ولا أعرف عن أنطون « الجميّل » أنه نظم شعراً أو حاول أن ينظمه، ولكنه كان في مجموعه قصيدة شعرية متساوقة النغم. واذا كان الوزن في القصيدة العربية ركناً من أركانها، فقد كانت حياة « الجميّل » متزنة في كل نواحيها، فما عُرف عنه اسراف في شيء أو إفراط في أمر... اتّزن في الأدب فكان أديباً وناقداً خطير الرأي، واتزن في السياسة فكان رجلاً معتدلاً يحبه رجال الأحزاب وقد فرح كل حزب منهم بما لديه... واتّزن في علاقاته مع الناس فأحبه الكبير والصغير. ولا أعرف أنه أسرف في شيء إلاّ حين أسرف على نفسه بالعمل حتى بات ضحيته. فكان بذلك مستجيباً لدعوة « جوزيف كونراد » الكاتب الانجليزي حين قال « اعمل حتى تموت » Do or die. ومن عجب أنه لم يقل الشعر على حين نبغ فيه ثلاثة من رفاقه في عهد التلمذة بلبنان وهم « شبلي ملاط » و « بشارة الخوري أو الأخطل الصغير » والمرحوم « وديع عقل » الذين تغني آثارهم عن أخبارهم.

على أن جيله من الرفاق قد أخرج جماعة من الأدباء هم « مسعود درويش » و « ابراهيم المنذر » و « شكري القرداحي » و « ابراهيم سليم النجار » و « يوسف البستاني ».

ولكن هؤلاء الرفاق تفرقوا ومشت بهم مناكب الأرض أو مشوا في مناكبها. فدعت أسباب الحياة « أنطون الجميل » الى مصر، وادخرته أسباب الموت في ثراها.

ومن كانت منيّتهُ بأرضٍ   فليس يموت في أرضٍ سواها

محمد عبد الغني حسن

حافظ وشوقي

معارضه التاريخ

دواوين شوقي زاخرة بألوان شتى من الشعر التاريخي لأن شوقيًّا – كما قلنا – كان مؤرّخاً بطبيعته كما هو شاعر بسليقته... ولكن أبرز ما في الجانب التاريخي من شعره قصيدته الرائعة « كبار الحوادث في وادي النيل » التي افتتح بها الجزء الأول من دواوينه وهي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة «جنيف» في سبتمبر عام ١٨٩٤ حينما ذهب مندوباً عن الحكومة المصرية ، وكان لم يبلغ الثلاثين من عمره . وقد بلغ عدد أبيات هذه القصيدة تسعين ومائتي بيت من قافية واحدة ، عرض فيها تاريخ مصر منذ أقدم العصور الى عهد نظمها ، وكان في عرضه للحوادث فنّاناً قبل أن يكون مؤرّخاً سارداً للحوادث ، فهو ينسرب من بين فرجات الحوادث ليلتقي بالحكمة سريعة الومض قوية التعبير ليس فيها تزيُّد ولا طغيان على العرض التاريخي لتكون منها وثبةٌ للخيال ونقلةٌ للفكر والتأمل ، فأنت ترى مواكب التاريخ منتظمة آخذة برقاب بعضها في نظام فنيّ ساحر لا يُمَلُّ .

ولشوقي ميزة في هذا اللون من شعره ، فهو بكلمة واحدة أو كلمتين أو شطرة من الشعر يسوق لك موكباً تاريخيًّا طويلاً تستعرضه في شعره في لمح البصر وتكاد تشعر أن لم يفُتْك من هذا الموكب شيءٌ دقيق .

وهذه القصيدة – على حدّ تعبير الدكتور محمد حسين هيكل بك (باشا) – « روايةٌ من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي . وقف فيها الشاعر وقفة مصريّ صادق العاطفة تفيض عليه ربّة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ . أي منذ عرف الناس شيئاً اسمه التاريخ . وأنت تراه في عرضه هذا التاريخ ممتلئ النفس فخراً بمجد مصر حين يرتفع بها المجد الى عليا ذراه ، آسفاً حزيناً حين تمرُّ بمصر فترات ظلم وذلة ،

مستفزاً للهمم حافزاً لعزائم أهل جيله والأجيال التي بعده كي يعيدوا مجد الماضي وعظمته ... ونراه في انتقاله من الفخر الى الأسف الى الاستفزاز يسير مع الحوادث متدفقاً متدفعاً فوق موج الماضي آتياً من لانهايات القدم كأنما هو قيثارة آلهة ذلك الزمان البعيد يدفع إليها كل جيل نسائمه فتتغنى وتشدو بأهازيج النصر تارةً وبترانيم المسرّة طوراً وبشجو الألم أحياناً » (١)

على أن القارئَ لهذه القصيدة لا يحسُّ فيها — على طول هذا العرض التاريخي — جفافاً ولا خروجاً على الروح الشعري، فقد كانت فنّية شوقي الشاعرية فيها أكثر سيطرةً على الموقف من فنيته التاريخية . ويرى الأستاذ عبد الحميد العبادي بك أن شوقيّاً كان « في هذا المجال يخطو فوق قمم الجبال وقلما يهبط الى القيعان والأودية . وهذا طبيعي فالمقام مقام الشعر لا مقام التاريخ بمعناه العلمي » (٢)

وقد استهلَّ شوقي قصيدتَه بوصف رحلته في البُحر وقال في مطلعها :

همَّت الفُلكُ واحتواها الماءُ   وحداها بمن تُقِلُّ الرجاءُ

ثم بدأ يخاطب البخار ليتخلص من هذا الخطاب الى الفخر حيث يقول :

قلْ لبانٍ بنى فشاد فغالى   لم يجُزْ مصر في الزمان بناءُ
ليس في الممكنات أن تنقل الأجـ   ـبال شمّاً وأن تنال السماءُ
أجفل الجنُّ عن عزائم فرعو   ن ودانت لبأسها الآناءُ
شاد ما لم يَشِدْ زمانٌ، ولا أنشـ   ـأ عصرٌ ، ولا بنى بنّاءُ
هيكل تنثر الديانات فيهِ   فهي والناس والقرون هباءُ
وقبورٌ تحطّ فيها الليالي   ويوارَى الإصباح والإمساءُ
تشفق الشمس والكواكب منها   والجديدان والبِلَى والفناءُ
فاعذر الحاسدين فيها اذا لا   موا فصعبٌ على الحسود الثناءُ
زعموا أنها دعائم شيدتْ   بيَد البغي ملؤها ظلماءُ

---

(١) من مقدمة الدكتور هيكل (باشا) للجزء الاول من الشوقيات

(٢) مجلة « الكتاب » — ص ١٥٨٢ الجزء العاشر (اكتوبر سنة ١٩٤٧) السنة الثانية

دُمِرَ الناسُ والرعية في تشييدها والخلائق الأُمراءُ
أين كان القضاءُ والعدل والحكمة والرأي والنُّهى والذكاءُ ؟
وبنو الشمس من أعزَّة مصر والعلوم التي بها يستضاءُ
فادَّعوْا ما ادَّعى أصاغرُ آتينا ودعواهمُ خناً وافتراءُ
إن يكن غير ما أتوه فخارٌ فأنا منك يا فخارُ براءُ

ثمَّ يتنقل شوقي بين عصور التاريخ السحيقة فيعرض لنا لوحاتٍ زاهية الألوان ولوحات أخرى قاتمة ، حتى يوفي على النهاية وقد اجتمعت له عدَّة منها تتفاوت في فتنتها كما تتفاوت في ألوانها حسب الظلام أو النور الذي يغمر العصر .

فاذا تلمَّسنا في ديوان حافظ أثر التاريخ المصري القديم في شعره وقعنا على قصيدته « مصر » التي أنشدها في الحفل الذي أُقيم بفندق الكونتننتال لتكريم المرحوم عدلي يكن باشا بعد عودته من أوروبا قاطعاً المفاوضة مع الانجليز ومستقيلاً من الوزارة ، وقد نشرت هذه القصيدة في ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٢١ وجعلها على لسان مصر تتحدث فيها عن نفسها ، وقد بدأها بهذه الأبيات :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبُناة الاهرام في سالف الدهر كفَوْني الكلام عند التحدّي
أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودُرَّاته فرائد عِقدي
أي شيء في الغرب قد بهر الناسَ جمالاً ولم يكن منه عندي ؟

ثمَّ يستمر في هذا الضرب من الفخر حتى يتذكر الجانب التاريخي فلا يعرض له إلاَّ بالروح الخطابي المفاخر أيضاً فيقول :

قل لمن أنكروا مفاخر قومي مثل ما أنكروا مآثر وُلْدي
هل وقفتم بقمَّة الهرم الأكبر يوماً فَرَيْتمُ(١) بعض جهدي ؟
هل رأيتم تلك النقوش اللواتي أعجزت طوق صنعة المتحدي
حالَ لونُ النهار من قِدم العهد وما مسَّ لونها طول عهدِ ؟

---

(١) فرينم = فرأيتم

هل فهمتم أسرار ما كان عندي   من علومٍ مخبوءةٍ طيَّ بردي ؟
ذاك فنُّ التحنيط قد غلب الده   ر وأبلى البلى وأعجزَ نِدّي
قد عقدتُ العهود من عهد فرعو   ن ففي (مصر) كان أوّل عقد
أنا أمُّ التشريع قد أخذ الرُّو   مان عني الأصولَ في كل حدّ

الى آخر هذا الفخر ، والقصيدة من الوجهة الأسلوبية قوية السبك — ما في ذلك شك — وهي من الناحية الخطابية بالغة حدود القدرة . فهي صالحة للإلقاء في المحافل ، جديرة بأن تنال الاعجاب من حيث قوة اللفظ وعذوبة الموسيقى وبراعة الاداء . ولكنها من الناحية التاريخية لا تستطيع أن تنهض الى جانب قصيدة شوقي ، لأنَّ حافظاً في محاولته كشف النواحي التاريخية كان سريع المرور بها لم يصوّرْ شيئاً كما صوَّر شوقي ، وكان في إمكانه وهو يقول :

فسَلُوا البحر عن بلاء سفيني   وسلوا البرَّ عن مواقع جُرْدي[1]

أن يرسم صوراً يستمدُّ ألوانها وخيالها من الصور التي اختزنتها ذاكرته من حياته في الجيش ومن قراءاته في التاريخ فيأتي بصور فريدة ، ولكنه لم يوفّق الى ذلك .

* * *

هذا من الجانب المصري القديم في التاريخ ، فأما الجانب الاسلامي فقد عرض له شوقي بكثير من القصائد لعلَّ أوَّلها قصيدة « نهج البردة » التي عارض بها قصيدة البوصيري واستهلّها بالنسيب ، وهي التي يقول في مطلعها .

رِيمٌ على القاع بين البان والعَلَمِ   أحلَّ سفكَ دمي في الأشهُرِ الحُرُمِ

ثم وضع فيما بعد خلال إقامته في اسبانيا قصائده التي عرض فيها للتاريخ الاسلامي وطبعت بعد وفاته في كتابه « دول العرب وعظماء الاسلام » نظم فيها من سير الرجال ما استعظم — كما يقول — وقد لزم في نظمها ما لا يلزم ، ولو أنه كان يرى الأليق والأحزم به ترك ذلك القيد . وبدأ هذه المجموعة التاريخية بالكلام على لغة العرب ثم انتهى فيها الى الكلام على دولة الفاطميين .

---

(١) الجرد = الخيل : ويريد الجيوش البرية

ولكن شوقياً في هذه المجموعة غيره في نواحي شعره الأخرى التي نجد فيها صوراً ابتدعها على حين أنه في كثير من قصائد هذه المجموعة أقرب الى روح ألفية ابن مالك وأمثالها البعيدة عن نفس الشعر وروحه إلاّ في أبيات قلائل ، فهو يقول مثلاً :

الخلفاءُ الراشدون أربعهْ   مرضيَّة سُنَّتهم متَّبعهْ
العُمَرَان وابن أَرْوَى(١) وعلي   في الذروة الشمّاء والأوج العلي

وليس في هذه المجموعة ما يُعدُّ تحفة فنّية رائعة سوى القصيدة التي سمّاها «صقر قريش» وهي موشّحة نهج فيها سبيل موشحة ابن سهل الأندلسي شاعر أشبيليَّة وسَبْتَةَ ، وهي التي يقول في مطلعها .

هل دَرَى ظبيُ الحِمَى أن قد حَمى   قلب صبٍّ حلَّهُ عن مكنسِ
فهو في نارٍ وخفقٍ مثل ما   لعبت ريحُ الصَّبا بالقبسِ

وقد عارضها أيضاً الوزير أبو عبدالله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب فقال :

جادك الغيثُ إذ الغيث همَى   يا زمان الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلك إلاّ حُلُماً   في الكرى أو خلسة المختلسِ

وقد أبدع شوقي في موشّحته وأتى فيها بصور جميلة . وخالف فيها القاعدة التي التزمها في جميع قصائد هذه المجموعة . وقد جاء هذا الابداع من الجوّ الذي نُظمت فيه فقد كان شوقي مقيماً بالاندلس فهو يحسُّ بزفرة العربي على هذا الفردوس الضائع من العرب . ولذلك برزت له موشحة ابن الخطيب فعارضها وكأن الصدى يؤوّب في مسمعه « ... يا زمان الوصل بالاندلس » فبعثت فيه لمحات من ملك العرب ، وبرزت له شخصية عبدالرحمن الداخل

على أن هذه القصيدة بالذات قد ظهرت على انفراد في الجزء الثاني من الشوقيات مما يدلُّ على أنها كانت عند شوقي خلال نظمها في منزلة غير منزلة زميلاتها في كتاب « دول العرب وعظماء الاسلام » إذ نظمت بروحٍ وفنٍّ مختلفين عن غيرها ، وهي قريبة في نفَسها الى أندلسيته المشهورة « يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا ..... » وقد صوّر شوقي في قصيدته « صقر قريش » قصة عبد الرحمن الداخل أول ملوك بني أُمية في الأندلس . وربما كان الى

---

(١) العمران = أبو بكر وعمر ... وابن أروى = عثمان بن عفان.

جانب إعجاب شوقي بهذا البطل العربي الذي غامر بعد أن تحطم ملك الأمويين في الشرق — في أن يقيم بنفسه لأسرته مُلكاً جديداً في الغرب — إعجاب آخر هو ما نعلل به قوة هذه القصيدة ، ذلك أن عبد الرحمن الداخل كان شاعراً ، ولعلّ من أروع الصور عنه تلك التي رسمها الأستاذ علي أدهم فهو يقول « وعبد الرحمن الداخل وليد أيام الثورات العاصفة والذي نشأ مثلما ينشأ ابن الملاّح فوق الزاخر الهزج وعاش عمره فوق غوارب الهزاهز والثورات يصارعها وتصارعه لا تشمُّ من شعره عبق الوحي ونفحة القدس ولا تشيم فيه بروق الأفكار البعيدة الخاطفة وأضواء النظرات المترامية الشاملة . ولكن المصائب التي حلّت بقومه وسارت بها الأخبار وتحدّث عنها الركبان عمّقت نفسه وأفسحت خياله وحرّكت فيه عواطف الحقد والكراهة من ناحية ولكنها من ناحية أخرى أطلّت به على جانب من جوانب الحياة الشعرية لأن ما رآه من تقلّب الحظ وتداوُل الأيام وما قاساه من الآلام بصّره رواية الحب البشرية في فصولها المختلفة وجعله يعرف الشقاء ويحسُّ الألم ، فمن رقيق شعره تلك الأبيات التي أرسلها الى أخته بالشام ويقول فيها :

أيها الراكب الميمّم أرضي   اقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرضٍ   وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قدر البين بيننا فافترقنا   وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضي (1)

ذلك من أسباب تعليلنا لقوة قصيدة شوقي ... فشوقي شاعر وعبد الرحمن الداخل شاعر. وشوقي بعيد عن وطنه اتخذ من الأندلس وطناً آخر يقضي فيه سنوات نفيه وقد ترك أُمه في مصر بعيدة عنه ، وعبد الرحمن بعيدٌ عن وطنه هاربٌ من أعدائه قد فارق أهله المشرّدين وقد ثلّ عرشهم فاتجه مغامراً مخاطراً صوب المغرب ثم الى الأندلس وفي نفسه آمال ... فكان من كل ذلك عونٌ لشوقي على أن يرسم لهذا العبقري الذي وفد على الأندلس وقد أخذ الخلاف مأخذه هناك فاستطاع أن يثبّت أقدامه وأن يرمي دعائم ملكه ، ذهب في

---

(1) كتاب « صقر قريش » — ص ١١٢ — للاستاذ علي ادهم ، أصدرته مجلة « المقتطف » عام ١٩٣٨

الوقت الذي هيأته الأقدار للمُلك العربي أن يظلّ في العالم الغربي منشور اللواء فكأنّ الأقدار اختارته لهذا وأرادت بالعرب خيراً فقد:

رُحموا بالعبقريّ النّابهِ   البعيدِ الهمّة الصعب القياد
مدّ في الفتح وفي أطنابهِ   لم يقف عند بناء ابن زياد

ومن ثمّ يعطينا شوقي صوراً جميلة لهذه البطولة الفذة. ومن روائعه تلك الصورة التي تمثل الداخل وهو في رحلته:

بسلامٍ يا شراعاً ما درى   ما عليه من حياءٍ وسخاءْ
في جناح المَلَك الروح جرى   وبريحٍ حفّها اللطف رُخاءْ
غسل اليمُّ جراحات الثرى   ومحا الشدةَ من محو الرخاءْ
هل درى أندلسٌ من قدما   داره من نحو بيت المقدسِ
بسليل الأُمَويين حما   فتح موسى مستقرّ الأسسِ

وهذه القصيدة هي من روائع شوقي في التاريخ.

* * *

فاذا التفتنا ناحية حافظ لنرى أثر التاريخ الاسلامي في شعره وجدنا له قصيدة نظمها عام ١٩١٨ عن ثاني الخلفاء الراشدين الفاروق عمر بن الخطاب، ولم يتبع فيها طريقة شوقي من حيث نظمها من باب الرجز بل جعلها كلها من قافية واحدة بلغت أكثر من ثمانين ومائة بيت. غير انه لم يأتِ بشيء مبتدع فأنت لا تقع فيها على وثبة خيال أو لمعة ابتكار فهي أقرب الى السرد الاخباري الراوي منها الى الفن القصصي الشعري..

فهو يقول منها في إسلام عمر:

ويوم أسلمتَ عزّ الحقُّ وارتفعت   عن كاهل الدّين أثقال يعانيها
وصاح فيه (بلالٌ) صيحة خشعت   لها القلوب ولبّت أمر باريها
فأنت في زمن (المختار) منجدها   وأنت في زمن (الصدّيق) منجيها

وهذه القصيدة لعلها من آثار صحبة حافظ للامام محمد عبده فلت حبيسة نفسه حتى

وجدت فرصة تكوينها . يقول الأستاذ عبد الحميد العبادي بك : « ولا ندري بالدقة الباعث لحافظ على نظم قصيدته ، فلعلّ الباعث له ما رآه من الثبات حال العالم الاسلامي إبان الحرب العالمية الأولى وفساد أمر الخلافة ، فأراد أن يجلو على المسلمين صورة لأقوى شخصية ظهرت في الدولة الاسلامية ، وهي شخصية عمر بن الخطاب ، فيكون للناشئة منها مثال يحتذونه وينسجون على منواله . وقد يكون حافظ أراد بنظم هذه القصيدة أن يجري في غبار شوقي ، ولا سيما بعد أن نظم شوقي نهج البردة » (١)

نعم قد يكون التعليل الثاني الذي أشار اليه الأستاذ العبادي بك هو الباعث لحافظ على نظم قصيدته العمرية . ولكن هل استطاع أن يجري في غبار شوقي ؟ الحق يلزمنا أن نقول إن قصائد شوقي في التاريخ الاسلامي منذ أنشأ نهج البردة حتى نظم مجموعته في دول العرب ترتفع عن المستوى الذي جرى فيه حافظ بالرغم مما في المجموعة الأخيرة من بُعدٍ عن روح شوقي الفنية . ولكن الحق يلزمنا أن نقول إن حافظاً قد بلغ في « عمريته » غايته في دقة النظم وسبك العبارة .

فن الشاعرين

أما وقد انتهيت من الموازنة في نطاق محدود بين آثار حافظ وشوقي في بعض النواحي التي اشتركا فيها أو تقاربت صورة المشاركة ، فقد وجب عليَّ أن اختم دراستي هذه بكلمة وجيزة عن فن هذين الشاعرين .

أول ما يلاحظ على فنّ شاعرينا المادية التي لم يستطيعا أن يبرأا منها حتى في الأوصاف التي تنأى عن المادية ، وقلّ أن تصفو صورهما منها . فشوقي مثلاً — وهو أقلُّ من صاحبه انغماساً في هذه الناحية — حين يصف منظراً طبيعيّاً لجريان الماء وخريره يصفه كأنه وضح العروس تبينه وتصيته . ولكن شوقيّاً كان يتجه صوب الخيال في كثير من قصائده

---

(١) مجلة « الكتاب » — ص ١٥٨٠ الجزء العاشر (اكتوبر ١٩٤٧) السنة الثانية .

وبخاصة ما كان متصلاً بالطبيعة ، على أن اتجاهه ناحية الخيال لم يكن استغراقاً في الطبيعة ولكنه كان افتتاناً حسياً أكثر منه إحساساً روحياً .

وكان التفات شوقي الى المعاني خاصية من خصائص فنه وإن كانت معارضاته لقصائد الشعراء الأقدمين وحبه في أول أمره الى الغريب من اللفظ يفسدان عليه جوّ قصيدته ، على أنه لم يكن يهتم ، كل الاهتمام ، باللفظ قدر اهتمامه بالمعنى — وإن كانت أكثر معانيه مما دارت في قصائد قديمة — ولذلك لن تحسّ في قصائده أن الشاعر كان يكدُّ ذهنه ساعة نظم قصيدته وفي ذلك يقول مطران بك « لا يجهد فكره ولا يكدّه في معنى أو مبنى » (١) وإن بدا لنا كدُّ الذهن في بعض أبيات قصائده التي عنّى نفسه فيها بالتقيد بالألفاظ الغريبة . ومن حسن الحظ انه يبدو أن شوقياً كان يحسُّ أن هذا مخالف لطبيعته الفنية فعمل على التخلص منه وعلى متابعة وحي طبيعته . ويرى الأستاذ البشري انه « اذا كان لهذا الشاعر صنعة أو كان له في شعره ما يعدّ من عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولاً ، فان واتى اللفظ ولان ونصع وأشرق وإلاّ فلأُمّ هذا اللفظ المبتذل » . (٢) وهو في ذلك على النقيض من حافظ الذي كان للفظ القوي الحظوة الأولى في فنه ، أما المعاني فتجيء في الدور الثاني أو الأخير . وقد قال هو نفسه « ... أما أنا فأميتُ المعنى اذا لم يتفق لي لفظٌ رائع » (٣) ... وهذا مصداقٌ لما أشار إليه صديقهُ مطران قبل ذلك بسنوات بعيدة حين قال « إنه في أقصى ضميره يؤثر البيت الجاد لفظاً على الجاد معنى » (٤) ... ولهذا جاءت ديباجته أقوى من ديباجة كثير من معاصريه ، ولقد قويت هذه الديباجة تبعاً لطبيعة حافظ من ناحية ، ومن الناحية الأخرى

---

(١) من كلمة للاستاذ خليل بك مطران فى « مختارات الزهور » التى أصدرها المرحوم الاستاذ انطون الجميل (باشا) سنة ١٩١٤ — ص ٢٠ طبعة مطبعة المعارف

(٢) كتاب « المختار » للمرحوم الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري — ص ٨٩ من الجزء الاول — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٥

(٣) من حديث لحافظ مع محرر مجلة « الهلال » صفحة ٩٠٧ جزء ٨ (يونيه سنة ١٩٢٨) السنة ٣٦

(٤) صفحة ٨٠ من « مختارات الزهور » التى أشرنا إليها

للجانب الذي وقف فنه فيه وهو مخاطبة الجماهير في قضايا سياسية تحتاج الى اللفظ القوي المثير الجذّاب على أن لا يكون فيه إغراب ، ومن ذلك كان يكدُّ ذهنه ليقع من محفوظه على بغيته . وقد قال عنه البشري إنه « مهما اختلف النقدة في شعر حافظ وفي شاعريته فإنهم لم يفترقوا قط في أنه كان من أمهر الصاغة في هذا الزمان » (١) ... أما شاعريته فكأنها يقظة وتنبه لا يعمل فيها غير عقله الواعي . والشعر عنده وسيلة على النقيض من شوقي الذي كان الشعر عنده – في رأيي – غاية ، وثمة فرق بين الاتجاهين ، وإن كانت الأخيلة عند الشاعرين – كما قلت – مادية بحتة . ولكن شوقياً كان عند ما يحسّ أن المادية طاغية على أخيلته ومعانيه وأنها تضايقه في بعض الأحيان ، يحاول أن يفرّ منها فيتجه صوب الدين لينظم قصائد في ميلاد الرسول وفي تحية العام الهجري وما شابه ذلك ، ولكنه رغم ذلك كان لا يستطيع الفرار عن طبيعته لأن هذه الأخيلة كانت تلاحقه أيضاً ... أما حافظ فلم يستطع الإفلات من قيود ذهنه ومن الفكرة القديمة السائدة عن معنى الشعر وطبيعته وتناسى أن الشعر على حد قول الدكتور أبو شادي « روح وتصوّف أي اندماج كونيّ في الجمال والحياة قبل كل اعتبار آخر » (٢) ولذلك ظلّ حافظ لا يحيد عن طريقه ولا يتجه اتجاهات جديدة أو يحاول محاولات جريئة بل ظلّ يتابع ظِلّ الأقدمين دون أن يتعمق أو يتناول أحاسيس النفس البشرية فيخلق من الصور القائمة لها ، وقد خبرها تماماً ، صوراً رائعة خالدة تمثل نفسيات الناس لا نفسيته هو في عمق وتحليل وكشفٍ عن خبايا تلك النفوس وآلامها الخفية لأن السطحية كانت كما يقول الأستاذ الزيات « من أبين خصائص حافظ » (٣)

حسن كامل الصيرفي

---

(١) من مقال المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري بمجلة « أبولو » ص ١٣١٥ العدد ١١ (يوليه سنة ١٩٣٣) من المجلد الاول

(٢) من مقال للدكتور أحمد زكي أبو شادي عن حافظ في مجلة « أبولو » ص ١٢٦٢ من العدد المشار اليه

(٣) كتاب « في أصول الادب » للاستاذ احمد حسن الزيات صفحة ١١٠

قلبي يناديك

قلبي يناديكِ بالوجيب   فهل تبالين بالنداء ؟
إن ثقلت وطأةُ الخطوب   تلفَّتَ القلب للوراء
للزمن السالف الحبيب   لواحة الحب والولاء
تخضلّ في عالمي الجديب

قد لاذ قلبي بالالتفات   إلى زمانٍ مضى بسيم
وأنتِ غفلى كـكل عاتٍ   عن محنة اليائس الكليم
ما بين ماضٍ وبين آتٍ   وقفتِ حيرى ولم ترحمي
واهاً على عهدنا القديم !

لم يبقَ لي غير ذكرياتي   فهي ملاذي من الهموم
كيف تناسيتِ ياحياتي   ما كان من سالف النعيم
إذ نقتفي لجَّة القناة   وننتحي فيأة الكروم
لهفي على سالف النعيم

دعاكِ قلبي فلم تجيبي   واضيعة الحبّ والرجاء !
قد مال نجمي الى المغيب   وأنتِ في جلوة السناء
من لم يذق لاعج الخطوب   لم يدرِ ما محنة الشقاء
واضيعة الحبّ والرجاء !

مفيد الشوباشي

قصة

جناية الآباء

خرجت التلميذات من المدرسة وانتثرن في الشارع ، انتثار فراشات الحقل الجميلة ، وهن يتمازحن ويتضاحكن ، وسارت « تحيات » متنحية عن رفيقاتها ، وهي شاردة الفكر ، تتنازعها الهواجس .

وما كادت تسير بضع خطوات حتى طرق سمعها صوت نفير سيارة ، فتطلعت الى مصدر الصوت ، فرأت شاباً جميلاً مرتدياً ملابس ضباط البوليس ، وهو واقف الى جانب سيارة صغيرة ، يضغط على نفيرها ضغطاً متوالياً ، كأنه يريد أن ينبه أحداً الى وجوده ، فعرفت أنها المقصودة بذلك ، واحمرّ خداها الأسيلان ، وأسرعت الخطى منتقلة الى الرصيف المقابل لمكان الشاب ، لكن هذا لحق بها وشرع يستعطفها ، غير أنها إزورّت عنه ، واشتدت في عدْوها ، دون أن تجيبه بكلمة.

وبينما هي سائرة لا تلوي على شيء ، طرق أذنيها صوت صديقتها أنيسة تقول بلهجة المداعبة : « هنيئاً لكِ يا تحيات بهذا الضابط الجميل ! »

فاضطربت الفتاة والتفتت الى خدينتها مجيبة بحدّة : « ما كنت أظنكِ سيئة الظن بي الى هذا الحد » .

— لا تحسبي أني غافلة عن تصرفات هذا الشاب ، فاني أراه كل يوم ينتظر خروجك من المدرسة ليسعى لمحادثتكِ

— وهل رأيتِ مني ميلاً للنزول على إرادته ؟

— كلاّ ! ولكني ألومكِ على هذا الجفاء

— ولماذا ؟

— لأنَّ مثل هـذا الفتى الجميل لا يُعرض عنه، لاسيما اذا كان محبًّا قد تيَّمه الغرام وبرّح به الشوق .

— إنكِ واهمة أيتها الصديقة ، فمن واجب الفتاة أن تعرض عما يشين سمعتها مهما كان الاغراء شديداً .

— هذه فلسفة جديرة بالعجائز ، لكنها لا تلائم عواطف فتيات في سننا ، لم تتفتح بعد أزاهير حياتهنّ ، فكل منا تودُّ أن تكون محبة ، وكل منا تود أن تكون محبوبة ، وياحبذا لو كنتُ مكانكِ ، وحزت قبولاً في عيني هذا الضابط الجميل .

لم تجب تحيات ، بل آثرت الصمت ، لأنها كانت تعرف استهتار رفيقتها وجموح نزعاتها، فتابعت سيرها وهي في لجة من التفكير ، حتى اذا وصلت الى منعطف الطريق سارت يمنةً بعد ما حيّت أنيسة بلطف ، وقصدت منزلها وقد تملكها اضطراب شديد ، وما كادت تلج الباب الخارجي ، وتجتاز ممر الحديقة التي تحيط به من الجانبين عُرُش الياسمين ، حتى طرق سمعها صوت زغاريد منبعثة من المنزل ، فوقفت مرتعدة وقد اشتدّ خفقان قلبها ، لكنها تغلبت على عواطفها وتقدّمت ببطء ، لأنها شعرت بأن رجليها أصبحتا عاجزتين عن حملها ، ودخلت غرفتها دون أن ينتبه أحد لمجيئها ، وألقت جانباً ما تحمله من كتب وكراريس ، وارتمت على مقعد معتمدة وجهها بيديها ، وطفقت تبكي بكاءً مرًّا .

لبثت على هـذه الحالة مدّة ، وهي مستسلمة بكليتها الى البكاء ، حتى تقرحت أجفانها واحمرّت عيناها الجميلتان ، وازداد توردِ خديها الأثيلين ، فطرق أذنيها صوت والدتها تقول لها :

ما ذا دهاكِ يا تحيات ؟

فرفعت الفتاة رأسها ،وتطلعت الى أمها بعينيها الدعجاوين المغرورقتين بالدموع ، وأجابت بلهجة العتاب الرقيق :

ألا تعرفين « يانينا » ؟

— لا أعرف سوى أنّ ابنتي غبية ، تبكي لأننا نعدّ لها معدّات الزفاف .

— أجل يا أمّاه ! فهذا الذي ينغّص عليّ عيشي ، ويسوّد الدنيا في عيني

— إنك حمقاء بلهاء ، لا تميزين بين ما يضرك وما ينفعك .

— بل أنا عاقلة أعرف ما يُهيأ لي ، فأنتما تقودانني الى شقائي وتعاستي ، وتظنان أنكما تعملان على هنائي وسعادتي .

— لم تزالي بعد صغيرة لم يعركك الزمن ولم تختبري الحياة ، فخيرٌ لك أن تتزوجي بعجوز غني يدللك ويحفظ كرامتك من أن تتزوجي شابًا مُدقعًا فيسيء إليك ولا ينيلك ما تسدين به رمقك .

فقالت تحيات باستعطاف :

تذكري يا أماه إني في السابعة عشرة من عمري ، وان من تريدين أنت وأبي أن تزفاني اليه قد أربت سنوه على الستين ، واني متعلمة وهو أميٌّ لا يحسن حتى رسم اسمه ، فضلاً عن تفاوت ميولنا ، وتباين نزعاتنا ، واختلاف مبادئنا ، واني من سكان العاصمة وهو من سكان أقاصي الصعيد ، فهل في شرعة الانصاف أن أقرن حياتي بحياته والبون بيننا كما بين السماء والأرض ؟

— أكرر لك أنك غبية لا تدركين معنى الحياة ، فكل هذه الفوارق التي تتمشدقين بها تزول أمام المال ، فهو الراحة والصفاء ، والحب والهناء ، وما عداه فتعاسة وشقاء ، فارجعي يا بنيتي الى عقلك ، وثوبي الى رشدك ، واقبلي العمدة زوجاً لك تنالي رخاء العيش وليانه ، وتتطلعي الى المستقبل وأنت آمنة مطمئنة .

فبكت تحيات وصاحت مستعطفة :

رحماك يا أماه ! لا تضمي غصن حياتي الرطب الى عود حياته اليابس ، ولا تجمعي بين ربيع عمري المتفتح الأزهار ، وبين شتاء عمره المليء بالأمطار والثلوج .

فأجابتها أمها بحدة :

كفى عناداً أيتها الابنة العقوقة ، لقد اخترنا لك هذا الزوج فيجب أن تقبليه ، إذ الكلمة لنا في هذا الأمر ، وما عليك سوى الطاعة والاذعان ، ونصيحتي أن تقلعي عن هذه المقاومة التي لا تجدي نفعاً ، لان أباك أقسم أن يرغم أنفك مهما كلفه ذلك ، فكل شيء أُعِدّ كما تعرفين ، وسيعقد له عليك في الاسبوع القادم .

قالت أم تحيات هذا وخرجت غضبى دون أن تهتم بابنتها ، فارتمت هذه على سريرها ، وألقت بوجهها على الوسادة ، وطفقت تبكي وتنتحب حتى كاد قلبها ينفطر أسىً ولوعةً

وكانت القريبات والصديقات مجتمعات في المنزل ، وهن يساعدن في اعداد الجهاز ويغنين ويزغردن ، فكانت أصواتهن تصل الى مسمع تحيات كأنها نواح وعويل لفقد ميت ورحيل عزيز .

* * *

قضت تحيات ليلتها في حالة تفتت القلوب وتذيب الأفئدة ، فكانت تارةً تبكي وتنتحب حتى يكاد يُغمى عليها ، وتارةً تسير في الغرفة ذهاباً وإياباً وهي في حالة اضطراب شديد ، وأخرى يتولاها ذهول وانحطاط نفسي وجسمي ، فترتمي على مقعد وتلبث جامدة لا تتحرك كأنها تحولت إلى تمثال ، لكنه تمثال الحزن والألم .

وما كادت الشمس ترسل أشعتها في الفضاء حتى نهضت تحيات متحاملة على نفسها ، وأصلحت من هندامها ، لأنها لم تخلع ملابسها طيلة ليلها ، وحملت كتبها المدرسية ، وخرجت قبل ان تدب رجل في المنزل .

* * *

انقضى النهار ووالدة تحيات ومن يعاونها من النساء منهمكات في إعداد معدات العرس ، حتى اذا ولّى النهار انصرفن الى بيوتهن ، ولم تبقَ سوى عزيزة هانم ، وهي جارة تسكن في الشقة المقابلة ، فقالت لأم تحيات وهي تتطلع الى الساعة :

ألا ترين ان ابنتك تأخرت كثيراً اليوم ؟

فالتفتت اليها أم تحيات ، وقد نبهها هذا السؤال الى غياب ابنتها وأجابت باضطراب :

نعم يا عزيزة هانم ، ولا أدري لهذا التأخير سبباً ، لا سيما وهي لم تعتده عليه .

— قد تكون ذهبت لزيارة أحد صويحباتها .

فقالت واضطرابها يزداد من دقيقة الى أخرى :

لا أظن ذلك ، لأنها لا تزور في مثل هذا الوقت .

وفي الحال نادت الخادم وأمرته بالذهاب الى المدرسة والاستفسار عن سبب تأخر تحيات

وتركت ما في يدها وجلست الى جانب جارتها والهواجس تساورها ، والأفكار تتنازعها ، وتذهب بها كل مذهب .

ساد السكوت بين الاثنتين ، وكل منهما منشغلة بما تصوّره لها مخيلتها ، حتى قطعت عزيزة هانم حبل هذا الصمت المُضني قائلةً :

أتسمحين لي يا احسان هانم بأن أصرح لك بما في نفسي ؟

فتطلعت إليها احسان وأجابت بحزن :

تكلمي أيتها الصديقة فاني مستمعة اليكِ .

— لقد تغيرت تحيات منذ شهور تغيراً محسوساً ، فشحب وجهها الجميل ، وذبلت نضارة وجنتيها ، وارتسمت على أساريرها آيات الكآبة ، واستعاضت عن مرح الشباب برزانة تجمع بين مرارة الأسى ولوعة الألم .

فتنهدت احسان هانم طويلاً وقالت :

هذا هو الواقع أيتها العزيزة .

— وأكبر ظني انه ناشىء من هذا الزواج التي تسعين إليه ؟

— لا أُخفي عنكِ ان تحيات غير راضية عن زوجها لأنه عجوز غير مثقف بل لا يُحسن القراءة والكتابة .

— إني أشاطرها هذا الرأي .

— عجباً أيتها الصديقة ! أتريدين اذن ان تتزوج بشاب لا يملك قوت يومه ، لكونه في ريعان الصبا ومقتبل العمر ، فأتركها تذوق معه مرارة الفقر وذل الحاجة ، وأرفض رجلاً غنيًّا يغدق عليها خيرات الدنيا ونعم الحياة ، لأنه طاعن في السن .

— نعم يا صديقتي ، لأن المال لا يجلب السعادة ، وحرام عليكِ أن تلقي بابنتكِ في هوّة الشقاء بتزويجها بعجوز يصح أن يكون جدًّا لها ، فأنتِ وزوجكِ لله الحمد في رخاء من العيش ، وهي وحيدتكما ، ولكما من أموالكما ما يغنيكما عن تقديم ابنتكما ضحيةً على مذبح المطامع ، فاربأا بها وبنفسيكما ، لأن مثل هذا الزواج يكون دائماً تعساً وشقاء ، لا راحة وهناءة .

همّت احسان هانم بتفنيد رأي جارتها ، لكنها أبصرت الخادم مقبلاً فهرعت اليه مستفهمة ، فأخبرها بأن تحيات خرجت من المدرسة كالمعتاد في الساعة الرابعة والنصف ، فتطلعت احسان الى الساعة المعلقة في الحائط وألفتها السابعة ، فسرت في جسمها رعدة خوفاً على ابنتها التي لم ترزق بها الاّ بعد سنين من زواجها ، وكانت تحبها حبًّا يقرب من العبادة ، وحبها هذا هو الذي حملها على تزويجها بغني ، لتجعلها بمأمن من غدر المحن ، وتقلب الزمن .

وفي تلك البرهة أقبل زوجها ، ولما أطلعته على غياب ابنته كاد يجن خشية أن تكون قد أصيبت بمكروه ، لأنه كان يحبها من صميم فؤاده ، ويروم اسعادها بهذا الزواج الذي يعتقد بأنه غاية المنى ، ومنتهى ما تصبو اليه الأماني .

وعاد من فوره قاصداً المدرسة ، لكنه لم يفز بأكثر مما فاز به خادمه ، فذهب من ساعته الى القسم وأخبر ضابط البوليس بغيبة ابنته ، فاهتمّ الضابط بالأمر وشرع في القيام بالتحريات اللازمة لمعرفة ما حلّ بالفتاة .

***

ذهبت مساعي والدَي تحيات أدراج الرياح في البحث عن ابنتهما كما ضاعت جهود رجال البوليس سدًى ، إذ ظلّ ما جرى للفتاة سرًّا خفيًّا لم ترفع عنه الحجب ، فتبدلت الأفراح أتراحاً ، وانقلب العرس الى مأتم ، وأخذ الأب يبكي ابنته وينحي باللائمة على نفسه لظلمه وعدوانه ، ولتحتيمه عليها قبول ذلك الزوج الذي كانت تنفر منه وتأباه ، وشرعت الأم تندب فلذة كبدها ، ساكبة دماء قلبها ، لا دموع عينيها ، وتعض أناملها ندماً على ما فرط منها في حق ابنتها ، وتعد نفسها بأنها لو عادت اليها لأحلتها في سواد عينيها ومهجة فؤادها .

مضى على اختفاء تحيات شهران ونيف ، دون أن يظهر لها أثر ، أو يصل عنها خبر ، فتطرّق اليأس الى قلبي والدَيها ، وأيقنا بأنه لم يعد ثمة أمل في لقائها ، فاعتزلا الناس واعتكفا في بيتهما ، يواصلان سواد الليل ببياض النهار ، في بكاء وعويل ، وحسرة وألم ، حتى أصبحا في حالة يرثى لها .

وكان لاحسان هانم أخ قد بلغ من العمر عتيًّا ، لكنه رغم كبر سنه كان عصري الفكر ، يأبى التقيد بالعادات القديمة البالية ، التي تصيب الأسر بأضرار بليغة ، وطالما نصح أخته بعدم التمسك بأذيال هذه التقاليد ، لكنها كانت تهزأ بآرائه ولا تعيرها أذناً صاغية.

ففي ذات يوم أرسل يستدعيها وزوجها على جناح السرعة ، لأنه في حاجة ماسة إليهما ، فنهضت احسان هانم وقد خفق قلبها ، دون أن تدري سبباً لهذا الاضطراب ، وأسرعت إلى بيت أخيها بصحبة زوجها الذي لم يكن أقل اضطراباً منها .

ولما استقرَّ بهما المقام هنالك ، قال شقيق احسان هانم لأخته : لقد احتملتِ من الآلام ما تنوء بحمله العواتق والمناكب ، وأظنكِ اتعظتِ بما مرَّ بك ؟

فهزت احسان هانم رأسها بحزن ، وانهمرت الدموع من عينيها . دون أن تفوه بكلمة، فاستتلى قائلاً :

واذا منَّ الله عليكِ وعلى زوجكِ بما يزيل كربكما فهل تحمدانه على نعمه وآلائه ؟

فصاح الاثنان بلهفة : وهل عندك خبر عن تحيَّات ؟

لا أقدر أن أجيب على هذا السؤال ، ما لم تطلعاني على رأيكما بشأنها فصاح الأب :

وأي رأي لنا سوى أننا ننتظرها ونحن على أحر من الجمر ؟

وقالت احسان باستعطاف :

حنانيك يا أخي ، قل لنا أتعرف شيئاً عنها ؟

— نعم لكنه ليس بالكثير

— بالله عليك اسرده لنا ، أخبرنا بكل ما تعرف

— واذا أمكنني أن أدلكما على مكانها ؟ . . .

فنهض الوالدان وصاحا معاً :

رحماك أين هي ؟ هيا بنا إليها ولو كانت في أقصى المعمورة

— إنها ليست بعيدة بهذا المقدار ، فهي . . هنا

— أين ؟ أين ؟

— هنا في هذا البيت .

وفي الحال دخلت تحيات ، فألقت أمها بنفسها عليها وضمتها الى صدرها ، وهي تكاد تغيب عن الوجود من شدّة الفرح ، وأسرع إليها أبوها وعانقها وهو يكاد لا يصدّق أن ابنته عادت إليه .

لكن تحيات تملصت برفق من عناقهما ، ورجعت خطوات الى الوراء ، ووقفت مطرقة الرأس ، والدموع تسيل من مآقيها ، فتطلعت إليها أمها وهالها تغير حالها واضمحلال جمالها ، حتى لم يبقَ منها سوى خيال أو شبه خيال ، فقد اصفرّ وجهها البديع ، وتغضنت بشرَتها ، وغارت عيناها ، وانطفأ بريقهما ، ووَقَبَ خداها ، وهزل جسمها حتى أصبح ثوبها فضفاضاً ، فصاحت أمها من صميم فؤادها .

ما ذا أصابك يا تحيات ؟

فازداد بكاء الفتاة وخبأت وجهها بيديها وأخذت تنتحب ، فأسرعت إليها أمها وحاولت ضمها ثانية الى صدرها ، لكن تحيات أبعدتها عنها بلطف قائلة بصوتٍ ضعيف :

لا تضميني يا أمّاه ، لأني لست أهلاً لذلك

قالت هذا وغطت وجهها بيديها الهزيلتين وأجهشت بالبكاء ، فصاحت أمها :

ماذا تقولين ؟

— أقول الحقيقة ، فاصغي إليّ يا والدتي ، واستمع لي يا أبي ، ولا تقاطعاني لأن دقائقي معدودة .

فكادت أمها تجن ، وهمّت بالكلام ، فأشارت تحيات إليها قائلة بصوت فيه رعدة :

عفواً يا أمّاه ، لا تضيعي الوقت ، لأنّ دقائقي أصبحت معدودة كما قلت لكِ . . .

وتوقفت عن الكلام ، ووضعت يدها المرتجفة على بطنها كأنها تسكّن ما بها من ألم ، ثم تنفست بعمق وأردفت بصوت مرتجّ :

أنصتا إليّ لأقصّ عليكما ما أصابني :

خرجت من المدرسة في اليوم الذي لم أعدْ فيه إليكما ، فقابلني شاب ضابط في البوليس ، أطلقتُ خالي على إسمه ، وكان ينتظرني كل يوم قريباً من المدرسة ، ويتودّد اليّ ، ملقياً على مسمعيّ كلمات الغواية التي تخلب عقول الفتيات ، فكنتُ أزورُّ عنه ، وأبتعد عنه ، دون ان أجيبه بكلمة ، لكني في ذلك اليوم كنت ضعيفة جسماً وإرادة ، لأني لم أنمْ طيلة

ليلتي من كثرة البكاء لاصراركما على تزويجي بذلك العجوز الذي أنفر منه ، فضلاً عن إني كنت أتمنى الابتعاد عن البيت خشية ان تضطراني الى الزواج على كرهٍ مني ، فتبعني الشاب كالمعتاد ، وشرع يسرد على مسمعي كلماته المعسولة ، فشعرت بضعف عن مقاومته ، لكني تابعت سيري ، مستمدة قوة من متانة أخلاقي ، وهو يلاحقني ويمنّيني بالوعود الخلاّبة ولا سيما بالزواج ، حتى شعرت بأن قواي تتلاشى رويداً رويداً ، فوقفت وتطلعت إليه قائلة :

ماذا تريد مني ؟

فأجاب :

أريد أن أتخذك زوجة لي ؟

فسألته :

أجادٌّ أنت في أقوالك ؟

فصاح وهو يكاد يترامى على قدمي :

وهل مثلي يسعى الى العبث بك أيتها الحسناء ؟ تعالي لأُقدمك الى والدتي التي طالما كلمتُها عنك .

فصاحت أمها :

ويلك يا تحيات !

فقالت الفتاة وهي تضغط بأناملها على أحشائها ، وقد اكفهرّ وجهها وتساقط منه العرق البارد :

أماه رحماكِ ، انصتي اليّ لأُتمّ حديثي قبل فوات الوقت ، لأني لا أقدر ان أتكلم إلاّ بصعوبة .

وهنا ازداد اكفهرار وجهها ثم احتقن فجأة ، وتوترت أساريره ، وجحظت عيناها وكادت تسقط أرضاً ، لو لم تعتمد على مقعد الى جانبها ، فأسرعت إليها أمها صائحة :

تحيات : ما ذا أصابكِ ؟

فأبعدتها باشارة من يدها وأخذت تتلوّى كالأفعوان وهي تعتمد بطنها بكلتا يديها وقالت :

لا شيء يا أمّاه .

وبعد ما سكتت قليلا وهي تتنفس ببطء وعمق حتى كان نَفَسُها يخرج زفيراً من صدرها ، استتلت بصوتٍ يكاد لا يُسمع :

اني موجزة ، فقد ركنت الى الضابط ، وذهبت في سيارته الى . . بيته . . كما ظننت لكنه عوضاً عن أن يقودني الى أمه ، كما وعدني ، قادني الى منزله الخاص ، بعد ما أطعمني

قطعة من الحلوى لم أدرِ ما فيها .

ولما أفقت من غيبوبتي وجدت نفسي . . ويا للهول . .

قالت هذه الكلمة بصوتٍ مرعب مخيف ، وسقطت على الارض تئن أنيناً موجعاً ، وهي تتقلب بطناً لظهر ، فأسرع اليها أبواها وخالها وأنهضوها ، وهم يكادون يجنون خوفاً عليها ، وأجلسوها على مقعد ، لكنها أبعدتهم عنها ، وهمت بالنهوض فخانتها قواها ، وسقطت على ركبتيها ، غير انها استطردت بصوتٍ متحشرج :

لقد هتك عرضي ، وخيرني بين الذهاب الى بيت أبوي حيث لا ألقى سوى الموت ، وبين أن أختبىء عاري في مكان آوي اليه ، يسترني عن عيونكم وعيون الناس أجمع فاخترت الأمر الثاني .

ولم أدر كنه ذلك المأوى إلاّ بعد أن دخلته ، فاذا به مكان للدعارة ، تديره امرأة عجوز شرسة الطباع ، وحشية الأخلاق ، تأتمر بأمر ذلك الضابط الوغد ، لأن محلها يقع في دائرة نفوذه ، فكنت أسام الذل ، وأحمل الهوان ، وأضطر مكرهة تحت تأثير الضرب والتهديد الى بيع جسدي لمرتادي تلك البؤرة .

فاهت تحيات بهذه الجملة الأخيرة بصوتٍ خافت مرتعد ، وقد برح بها الألم ، فسقطت على وجهها .

وكان أبوها وأمها يستمعان اليها ، وهما ذاهلان جامدان كأنهما فقدا الحس والشعور فهبّا اليها لينهضاها ، وهما لا يقويان على التفوه بكلمة لشدة وجومها ، لكنها غالبت قواها المتخاذلة ، ورفعت رأسها مستندة الى مرفقها ، وتطلعت اليهما بعينين جامدتين متحجرتين وقالت بصوتٍ يكاد يضيع على شفتيها لخفوته :

لقد شربت سمّاً زعافاً قبل أن أدخل عليكما ، وهو الآن يمزق أحشائي ، فأشعر بأن فيها أتون نار ، يصهرها بأواره المضطرم .

وأرادت ان تستوي على ركبتيها لكن قواها خذلتها فاستتلت : لقد مكثت في ذلك الجحيم الارضي أكثر من شهرين ، ولم يتسنَّ لي الهرب منه إلاَّ اليوم لشدة الرقابة عليَّ ، فتزوَّدت بسم شديد الفتك ، وقصدت منزل خالي لعلمي برقة قلبه ، ونبل عواطفه ، وقصصت عليه واقعة حالي ، طالبة منه السعي لي ، لأتزوَّد منكما بنظرة أخيرة قبل ان أرحل عن هذه الدار ، التي لم تدرَّ لي غير الشقاء والتعاسة . . آه . . أحشائي تتقدُ . فؤادي يلتهب . . لم أعد أبصر شيئاً . . فالوداع يا أبي . . الوداع يا أمي . . سامحكما الله .

قالت هذا وسقطت على الأرض وأسلمت الروح .

(عزبة الزيتون) جورج نيقولاوس

طفلتها (١)

« أخذتها مقبلا باكياً   أما بها من أمها رائحة . »
بعد عشرة أعوام من هوى صائع تمر بالشاعر طفلتها .
فيأخذها بين ذراعيه ، ليعانق فيها صورة أمها

طالَعَني دربي .. بها مرةً   ترفُّ كالفراشة الجانحهْ
طفولةٌ كما تبوحُ الربى   ومَبسِمٌ كأنه الفاتحهْ
وكنتُ شيّعتُ زمان الهوى   وانطفأت زوابعٌ نابحهْ
غداةَ عند الكرمِ ، قعدَاتُنا   بحضن تلك الربوةِ الصالحهْ

* * *

يا صُغرَها أعز أنموذجٍ   من بعد تلك الغُربة الفادحهْ
وكيف هذا كان .. قد أُورثتْ   حتى رنينَ اللَّثغَةِ الصادحهْ
حتى انثيال الشعر .. حتى الفم الملثوم .. حتى النظرة السارحهْ
يا وجهها الصغير غبّ النوى   تقضني جارحة .. جارحهْ
هل أقبلتْ طفلتُها بعدها   تفجعني بأمها النازحهْ
عشرةُ أعوامٍ على حبِّها   كأنه في الليلة البارحهْ
ولم تزل صورتُها في دمي   غريقةً .. أنيقةً .. سابحهْ

* * *

أخذتُها ، مقبِّلاً باكياً   أما بها من أمِّها رائحهْ

نزار قباني

---

(١) من ديوان « طفولة نهد » وقد صدر أخيراً

الـكساحة

أسبابها — أعراضها — علاجها

الـكساحة ، أو الخرع ، مرض من أمراض الأطفال التي يجب أن يعرفها الخاص والعام ، وهو ناشيء عن قلة المواد الواقية للجسم ، وبعبارة أخرى عن اضطراب في تكوين العظام لنقص الأملاح الترابية التي تدخل في تركيبها ، فتلين ويصبح من السهل التواؤها وتشوهها.

وهذا المرض من أكثر أمراض الأطفال انتشاراً وينتابهم في السنتين الأوليين من أعمارهم وعلى الأخص في السنة الأولى بدون فرق في الجنس . وبوجهٍ عام لا يبتدىء ظهوره عندهم إلاَّ اعتباراً من الشهر السادس بعد الولادة وهو وقت ابتداء التسنين ، ونادراً وقت الولادة (كساح وراثي).

منظر طفل كسيح

ومن ناحية أخرى لوحظ أحياناً حدوث بعض تشوهات عظمية في دور الطفولة الكبرى ، وفي أحيان أخرى أيضاً في دور الحداثة (كساح متأخر)

ويستنتج من الاحصاءات الرسمية أن ٩٠ ٪ مصابون بهذا المرض وهو بين الطبقات الفقيرة أكثر منه بين الطبقات الموسرة ، ومع ذلك فنسبة الاصابات به بين الطبقات الموسرة هذه التي تسكن المدن تبلغ أحياناً ٦٠ ٪ في حين أن الاصابة بالكساحة في أطفال الريف والجهات الخلوية أخف من اصاباته لأطفال المدن المزدحمة بالنظر الى توفر أشعة

الشمس ، أو بالأحرى الأشعة فوق البنفسجية في الريف والجهات الخلوية ، وقلتها في المدن المزدحمة . وأشعة الشمس وما بها من الأشعة فوق البنفسجية من أهم العوامل في دفع هذا المرض والوقاية منه .

أسبابها

وأكثر الأطفال تعرضاً للكساحة هم النحفاء ، والمولودون قبل أوانهم ، والتوائم وذوو البنية الخنزيرية Scrofuleux . ويساعد على ذلك السكنى في الأماكن الرطبة المظلمة ، وعدم الكفاية من الطعام المغذي واللباس الكافي ، وكبر سن الوالدين أو إصابتهم بالسل أو الزهري . وقد لوحظ اصابة الأطفال بهذا الداء في البلدان الشمالية مثل انكلترا ومناطق بحر البلطيق وما جاورها — أكثر بكثير مما في جنوب أوربا والجهات المشمسة الأخرى ، وفي الشتاء أكثر مما في الصيف ، لذلك أطلقوا على هذا المرض اسم « مرض الشتاء » .

وبين العوامل الرئيسية الأخرى التي تؤدي الى الاصابة بالكساحة : نقص مركبات الجير (الكالسيوم) والفوسفور في غذاء الطفل ، وعدم ترسب القدر الكافي منهما في أطراف العظام الطويلة الغضروفية الأصل لتغدو عظمية صلبة ، وبعبارة أخرى يكون التمثيل الجيري في المريض ناقصاً ، وعلى الخصوص نقص الفيتامين « د » المنظم للاستحالة الغذائية لهذين العنصرين في جسم الطفل فاذا ما نقص هذا الفيتامين في غذاء الطفل اختلت الاستحالة الغذائية للكالسيوم والفوسفور — وهما المادتان الأساسيتان في تكوين عظام الطفل — فينقص خزن أملاحهما في الجسم فتلين إذ ذاك العظام ويصبح من السهل اعوجاجها والتواؤها ، وبخاصة اذا كانت هذه العظام من التي يقع عليها ضغط كبير ، كعظام الساقين مثلاً ، وقد تلين هذه العظام في بعض الحالات لدرجة تؤدي الى انكسارها ، فيضطر الى وضع الطفل في الجبس لتجبير الكسور واصلاح العظام المشوهة .

ولا يقتصر حدوث الكساحة على العظام الطويلة مثل الذراعين والساقين فحسب ، بل قد تصيب أيضاً كل الهيكل العظمي : كعظام الجمجمة والضلوع عند اتصالها بالقص ، والجذع والعمود الفقري والحوض والوجه والفك الأعلى وغيرها ، ولكنها لا تصيب في الغالب إلا العظام الطويلة ، وهذه تلتوي تدريجاً سواء بثقل الجسم أو بتشغيل العضلات . وليس

هذا كله ، فالكساحة نفسها كثيراً ما تؤدي الى لين الأسنان الموجودة ، أو الى قلة عددها أو الى تأخر بروزها ، أو تشوّه الأسنان الجديدة وتقلّعها وسوادها

أبنّا أعلاه ما لقلة المواد الواقية للجسم من التأثير في تسبيب هذا المرض . والواقع أنه لو وُجدت هذه المواد في جسم الطفل لما أُصيب به ، وإذا أُعطي من هذه المواد شُفي منه . وفضلاً عن الفيتامين « د » الذي أتينا على ذكره يوجد أيضاً الفيتامين « ا » وكلاهما موجودان بكثرةٍ فى دهن الحيوان ، وفي اللبن والزبد وصفار البيض، وفي زيت كبد الحوت (زيت السمك) والخضر والفواكه . ويسمى الفيتامين « ا » بفيتامين النمو ، وفيتامين « ب » بالفيتامين المضاد للكساحة .

ويجب ألاّ ننسى كذلك عوامل أخرى مهمة تعمل على إحداث هذا المرض ونعني بها رداءة التغذية ، والرضاعة الصناعية وما يرتكب غالباً وقت استعمالها من الأخطاء الصحية الكثيرة . وقل مثل هذا عن الفطام الباكر والطعام الزائد الذي يؤدي الى تمدّد المعدة والاضطراب الهضمي . وقد يصاب الأطفال به أحياناً اذا زادت تغذيتهم عن الحدّ اللاّزم حتى عند الذين يتغذون بلبن أمهاتهم ، أو إذا أُعطوا أيضاً أطعمة جامدة قبل الأوان نسبة لسنهم ، بدلاً من اللبن الحليب .

وأخيراً قد يكون سبب الكساحة في بعض الأحيان إصابة الطفل بأحد الأمراض الحادّة كالحمّى التيفية أو الحصبة أو الخنّاق وجميعها تؤثر تأثيراً بالغاً في تغذية الطفل العامة ، وتزداد الحالة تفاقماً لمّا تكون صحته العمومية سيئة .

أعراضها

تبتدىء الكساحة عادةً في الظهور في النصف الثاني من السنة الأولى عند الطفل، وذلك بارتفاع الحمى ، والاضطرابات المعدية المعوية ، والاسهال الحامضي ، والعرق الغزير ليلاً وعلى الخصوص على جانبي الرأس والبطن ، ويشعر الطفل في الوقت نفسه بأوجاع في الجهاز العظمي . فهذا الطفل ، بعد أن كان يجلس وحده وبدون وسيط في الشهر السادس من عمره تراه ، بعد إصابته بالكساحة ، قد تأخر جلوسه بعد ذلك الوقت ، كذلك يتوقف سن نهوضه وسن مشيه عن الميعاد اللازم . والطفل نفسه لا يقتصر على عدم محاولة المشي بل انه

يرفض الوقوف على قدميه . والناظر اليه يرى فيه ما يبعث على الحزن والاشفاق من شحوب اللون والهزال ونحول الجسم واسترخاء العضلات وسمن الخدود وانتفاخ البطن نتيجة تضخم الكبد (وهذا ما يذكرنا ببطن الضفدعة) . أضف الى ما تقدم : اصفرار الأسنان ، وشكل الرأس الطويل المربع ، وورم مفاصل الركبة والمعصم والرسغ والتواء السيقان ، وتضخم كراديس الضلوع : فترى صفاً من العقد على جانبي الصدر تشبه بشكلها حبات السبحة ، ثم إن عظام اليافوخ الأمامي لا تتحد في ميعادها اللازم . ويصحب هذا كله اضطرابات هضمية مختلفة كالقيء وتناوب القبض والاسهال ، والتشنجات والحمى غالباً . وهو الى ذلك كئيب الهيئة ، قليل الحركة نسبةً الى سنه ، يفزع لأقل سبب ويشكو ألماً شديداً لدى محاولته النهوض أو الحركة ، ويكون تنفسه دائماً عسراً .

تلك هي أعراض مرض الكساحة موضع رهبة الأمهات ، المنتشر في أنحاء العالم ، خصوصاً في شمال مدن أوربا الكبرى بحيث اكتظت المستشفيات هنالك بألوف من الأطفال المصابين به . ويدوم هذا المرض من ستة أشهر الى سنة واحدة ثم يقف عند حده بعد سنتين الى ثلاث سنوات . والغالب انه لا يصل الى نهاية هذه المدة لأن المريض الصغير يقضي نحبه في معظم الأحيان سواء بمرض القلب ، أو بالالتهاب الشعبي الرئوي أو بالتهاب البليورا (ذات الجنب) ، أو بالسل ، أو بشلل الامعاء ، أو بنتيجة الضعف والهزال .

الوقاية

والطريقة الوحيدة لوقاية الطفل من هذا المرض هي الاقتصار على تغذيته بلبن أمه . فقد أيدت الاختبارات العديدة والمشاهدات الكثيرة أن استعمال اللبن المعقم يؤدي غالباً الى الاصابة به ، ثم إن التعقيم نفسه يبيد الخمائر العضوية الموجودة في اللبن الحليب ، ويبيد كذلك العصارات المفيدة والضرورية جداً للهضم الصحيح .

ولا ينكر أن الأطفال الذين يتغذون بالثدي الصناعي (المصاصة) ، أو باللبن المعقم ، يكونون غالباً ضخام الأجسام حسني المظهر ، لكن لحمهم هذا منتفخ فقط ... والواقع أن ليس عندهم أية مقاومة لأهون الأمراض !

ويجب ألا ننسى خصوصاً أن خمائر لبن الحيوانات الداجنة كالبقر والماعز مثلاً ، تختلف

اختلافاً كليًّا عن خمائر لبن الأم : وهذا هو السبب في صعوبة هضم اللبن الحيواني هضماً جيداً .

والثابت اليوم أن الكساحة غير معروفة في اليابان لأن اليابانيين لا يرضعون اطفالهم الا من ثدي أمهاتهم - بعكس انكلترا التي نرى أن نسبة الاصابات بالكساحة فيها عالية جدًّا بحيث يسمى هذا المرض غالباً « بالمرض الانكليزي » ، وأسباب ذلك هو تغذية الاطفال عندهم بمستحضرات اللبن الصناعية ، أو بالمساحيق النشوية .

* * *

ويشترط أيضاً للوقاية من هذا المرض : العنـاية بصحة الطفل العامـة وذلك باستعمال الحمامات اليوميـة ، وتهوية غرفتـه تهوية كافية وجعلها فسيحة صحية ، معرضة للشمس ما أمكن ، والاكثار من نزهاته بقدر المستطاع ، وابقائه بضع ساعات يوميًّا في الهواء الطلق ، واجتناب الرطوبة ، والعناية في طعامه عناية خاصة كي يكون خفيفاً مغذياً . واذا كان يرضع من ثدي أمه فيجب أن تكون رضاعته هذه منتظمة ومواعيد هذه الرضعات غير متقاربة . وإذا كانت رضاعته من الثدي الصناعي فيجب أيضاً تنظيم مدة الرضعات والتأكد من جنس اللبن الذي يعطاه الطفل ، وتعقيمه على النار ، ومزجه بمقدار الماء اللازم نسبة الى سنه الى أن يعطى صرفاً . كذلك يعتنى بنظافة الحلمة الصناعية اعتناءً تامًّا .

ولما كانت الامهات المرضعات يفقدنَ كثيراً من الكالسيوم والفوسفور من أجسامهنَّ بسبب الارضاع ، فلسنَ أيضاً بأقل من الطفل حاجة الى مقدار من الفيتامين « د » ، لأن هذه المادة تمكن الجسم من امتصاص الكالسيوم والفوسفور من الأغذية وتمثيلهما ، مما يسد النقص الحادث فيهنَّ ، فتستفيد المرضع والطفل معاً .

أما الفطام فلا يجوز اللجوء اليه قبل الشهر الخـامس عشر من عمر الطفل ، وإذا كان لا بدَّ من الفطام قبل نهاية هذه المدة لسبب من الأسبـاب الخطيرة فيجب أن يكون ذلك تدريجيًّا اعتباراً من الشهر التاسع أو العاشر من عمر الطفل ، ويحترس حتى لا يكون ذلك في أيام الحر الشديد .

العلاج

عرفنا مما سبق أن لمرض الكساحة أسباباً يحدثها ، وعلى ذلك يمكننا أن نضع لعلاجه نظاماً تبعاً لهذه الأسباب للتغلب على هذه الآفة الاجتماعية بقدر المستطاع .

أولاً — يُعمل على تأمين الشروط الصحية للطفل على نحو ما ذكرنا أعلاه . فتخصص له غرفة فسيحة جافة ، كثيرة النور والهواء وتتخللها أشعة الشمس بالكفاية . واذا كان ممكناً يرسل الطفل الى بعض المناطق الجبلية أو الأرياف ، أو شواطىء البحار التي تحسّن كثيراً صحة المصابين في مختلف أدوار هذا المرض بالنظر الى نقاوة الهواء هنالك مع توفر أشعة الشمس ، ولا سيما الأشعة التي فوق البنفسجية — تلك التي تنفذ خلال الجسم فتؤثر فيه حتى تكسبه ما يعوزه في فيتامينات لازمة لبناء العظم بناء سويًّا .

ثانياً — حمامات البحر : يفيد كذلك فائدة كبرى الغسل بماء البحر ، واذا تعذر ذلك فيلجأ الى الاستحمام بالماء المملح الدافي (٥٠٠ غرام من الملح الى ٣٠ لتراً من الماء بدرجة ٣٧ مئوية ولمدة عشر دقائق) ، وذلك في مغطس للاطفال من السن الثانية الى الثالثة . أما الذين عمرهم أربع سنوات فما فوق فيستعمل لهم ماء مملح بارد ، ويكرّر ذلك يوميًّا . واذا كان الولد ضعيفاً ولا يطيق الاستحمام بالماء البارد يمسح جسمه بالاسفنجة ، وعقب الحمام يفرك جسمه كله بالكحول .

ثالثاً — التغذية : يعتنى بها اعتناء خاصًّا ، وتكون كمية الطعام قليلة ومتنوعة ما أمكن. فالرضّع الذين يتغذون صناعيًّا يجب ألاَّ يزيد مقدار اللبن الذي يعطونه عن نصف لتر يوميًّا ، وتتمم تغذيتهم هذه باعطائهم بعض أنواع الحساء والبقول . فالطفل الذي عمره أربعة أشهر ووزنه ٩ كيلو غرامات مثلاً ، يعطى يوميًّا أربع مرات ٢٠٠ غرام من مغلي بعض المساحيق النشوية مثل دقيق الخرطال Avoine أو دقيق الأرز أو الاراروت . وابتداء من الأسبوع الثامن يضاف الى طعامه مرتين الى ثلاث مرات يوميًّا قدر ملعقة قهوة من عصير الليمون أو عصير البرتقال أو عصير الطماطم (البندورة) الغضة قبل تناول اللبن الحليب . وفي الشهر الخامس يضاف الى طعام الطفل نصف صفار بيضة . وبعد الشهر السادس يدخل في طعامه

مدهوك اللحم مع مدهوك البطاطس المضاف إليه اللبن الحليب ، وكذلك مدهوك البقول الجافة كالعدس والفاصوليا والبازلاً ، والتفاح المقشور المبشور ، والبندورة والموز .

رابعاً — زيت كبد الحوت : يفيد أيضاً في هذه الحالة اعطاء زيت كبد الحوت (زيت السمك) إذا كانت معدة الطفل تتحمله (قدر ملعقة قهوة صغيرة منه في كل مرة لكل ستة أشهر من عمر الطفل . ثم أكبر منها قليلاً للاطفال الذين هم أكبر سناً ، ويُستمر على استعماله بضعة أشهر) .

واذا تعذر إعطاء زيت كبد الحوت مباشرة للطفل لسبب ما ، فيمكن إعطاء المرضع منه مقاديراً كافية فيتسرّب مع اللبن الحليب الى طفلها المصاب بالكساحة كما لو كان يتناوله هو بنفسه . صحيح أن المقدار الذي يستفيد منه قليل نسبةً الى المقدار الذي تتناوله الأم ، ومع ذلك فهو كافٍ لوقايته من هذا المرض .

ومن الضروري أيضاً عدا ذلك اعطاء المصابين بعض الأدوية المفيدة الأخرى والتي منها شراب فوسفات الكالسيوم Sirop de phosphate de chaux بغية تعويض نقص فوسفات التريكالسيك في عظامهم . والواقع انهم لا يفتقرون إلى فوسفات الكلس بل يفتقرون إلى القدرة على تثبيت هذه الفوسفات في عظام مكتملة نامية عندهم .

وينصح بعض الأطباء بإعطاء الطفل أيضاً الفوسفور بمقادير ضئيلة جداً مضافاً الى زيت كبد الحوت (١ ملليغرام من الفوسفور الى كل ١٠٠ غرام من زيت كبد الحوت) فيعطى من هذا المزيج قدر ملعقة قهوة للطفل يومياً . ويمكن أيضاً في هذه الحالة اعطاء شراب هيبو فوسفات الجير ثلاث ملاعق في اليوم Sirop hypophosphite du Dr Chorchill

خامساً — تأثير الشمس والهواء الطلق : إن تأثير الشمس في الكساحة آتٍ من مفعول الأشعة فوق البنفسجية كما سبق وذكرنا أعلاه ، وهكذا قل عن فائدة الهواء النقي . ولذا يقتضي تعريض الجسم عارياً لأشعة الشمس المباشرة كل يوم مدّة تزداد تدريجياً : إما بفتح نافذة الغُرفة أو بتعريض الجسم في العراء . فيُبدأ أولاً بتعريض القدمين وحدها لمدة خمس دقائق ، ثم يزاد تدريجاً تعريض باقي انحاء الجسم يومياً . وعلاج كهذا يتطلب مدّة اسبوعين لتعويد الجسم على التعرض الكامل المباشر لأشعة الشمس . غير أنه يجب الانتباه في

خلالها لئلاَّ يصاب الطفل بالبرد ، ولا سيما في الفصل البارد .

ويمكن الاستعاضة عن ذلك بالاشعة الصناعية ،ثلاث مرات في الأسبوع ، وذلك بواسطة جهاز خاص مُرسل للاشعة يوضع على بُعد متر واحد من الطفل . فيُبدأ أولاً بتعريض الجسم للاشعة الصناعية مدة ثلاث دقائق ، ثم تزاد هذه المدة بالتدريج حتى تبلغ ٢٠ دقيقة .

سادساً — مكافحة التشويهات العظمية : وبالنظر لضمور العضلات المتزايد دائماً في حالة الاصابة بالكساحة الشديدة ، يمكن وقف هذا الضمور باللجوء الى تدليك الأطراف وتمسيدها ، بل تمسيد الجسم كله ، ويضاف الى هذا العلاج أيضاً استعمال الكهربائيـة إذا رأى الطبيب استعمالها ضرورياً . ويمنع الولد من المشي لئـلاَّ يزداد تموّج عظام الساقين والتواؤها تحت تأثير ثقل الجسم . ويجب كذلك عدم حمل الطفل على الذراعين للسبب نفسه منعاً لتشويه العمود الفقري ، والأوفق تركه ما أمكن ممدّداً على فراش قاس . واذا أريد إخراجه للنزهة تستعمل له عربة صغيرة يكون فيها مستلقياً لا جالساً منعاً لحدوث التشويه في ظهره والتعوُّج في عظامه . أما العظام المنحنيـة جدًّا فتحتاج الى يد الجرّاح الخبـير والأخصائي بتجبير العظام وأمراضها لا المجبر الجبلي الذي كثيراً ما يأتي بالسوء عوض الخير .

وإذا عولج داء الكساحة في وقته ،خصوصاً اذا تمـكن الطفل من الاستحمام مدَّة طويلة بماء البحر ، يمكن إذ ذاك الشفاء منـه بوجهٍ عام ، فتخف حينئذٍ أورام مفاصل العظام في الركبة والرسغ وغيرها ، ويقل أو يزول اعوجاج العظام ، ويعود الجذع الى شكله الطبيعي بمساعدة بعض الأجهزة الخاصة لهذا الغرض بحيث لا تضايق حركات عضلات الطفل أو نشاطها وإذا بقيت التشوهات العظمية على حالها ولم تزل في سن السادسة أو السابعة من عمر الطفل فأمل الشفاء منهـا يُعدّ ضئيلاً وتبقى على ما هي الى النهاية . واذا كانت التشوهات العظمية زائدة لدرجة انها تضايق وتمنع سير الطفل أو تسبّب دمامة أو قبحاً في شكل العضو المأوف ، فقـد يلجأ في هذه الحـالة الى ابدال قسم من العظم المشوّه أو كله بعمليـة دقيقة جدًّا (Ostéoplastie) ، وهي من متعلقات الجرّاح الخبير الدارس .

بيروت — محلة قرن الشباك الدكتور عبده رزق

مشهد من مسرحية كليوبترا (١)

للشاعر محمد فهمي

حجرة استقبال في قصر الملكة كليوباترا حيث تشاهد الملكة تدخل يحف بها وصيفاتها ثم تجلس وعند قدميها تجلس هرميون وصيفتها وبأشارة من الملكة ينصرف جميع الوصيفات إلا هرميون...

كليوباترا (بعد لحظة) —

أما زال مع الرُّسْل ؟ لعمري أيٌّ أنْباء ؟
وماذا جدّ في روما فأغراه بإصغاء ؟
لأخشى أنْ يعاوده حنينٌ كامن الداء ...

هرميون :

أما أقسمَ ان يبقَى ؟ !

كليوباترا: بأربابٍ أعزّاء ...
ولكنْ تسخرُ الأقدار في أجواز علياء ... !

هرميون : دعي الشك — سماءَ الن يل — لأواءَ الأحبّاء
وعِيشي في نعيم الحب موَّاراً بأضواء
وغِربانًا من الظنّ ابعديها — شؤمَ ظلماء
فان الشك للأحباب كفرانٌ بنعماء . . .

حاجب يهتف :

إلهُ الحرب أنطونيو

هرميون: إلـه الحب قد أقبلْ !

يدخل أنطونيو متهللًا —

انطونيو : أحبّي الجمال أحبّي الفتون أحبّي القمرْ
ومن يسرقُ الفجرُ منه البهاء اذا ما خطر
ومن تشهد الشمس هذا المحيا فتحيي البشر
ومن يلثم الورد منه الشفاه ..... فكم يستعر
وهذي الرياض ربا حسنها .. هنا .. وانتشر .. !

---

(١) انظر اعداد المقتطف السالفة ديسمبر ١٩٤٧ ويناير وفبراير ومارس ١٩٤٨

كليوباترا (وقد تشابكت أيديهما) .

أراكِ أطلتَ هناك الحديث   وقد كان قبلاً لهم يُختصرْ
فماذا تُرى جدَّ في شأنهم ؟

أنطونيو   جليل الأمور! جليل الخطر !

(يجلسان)

لقد حاط أكتافيوسَ الخصومُ فهذا يهمّ وهذا يثبْ
ونازعه البعض عن محتدٍ   لآبائه كان فوق الشُّهب
فأصبح كالهرّ بين الذئاب   قليل الغناء سليب الرهبْ
وما سيفه بالذي يرهبون   ولا بأسه بالذي يُحتسب
فإن لم أسارع لإنجادهِ   هوى الصرح . بل صرحنا المرتقب !!

كليوباترا (ثائرة)

تكلّم ... أبِنْ ... وقل لي صريحاً   لقد ثار فيك لروما النّزاعْ
وشاقتك تلك الملاعب ضجّت   بحسنٍ يروع وحسنٍ يُباع
لقد نلت ما تشتهي فليكن   مقامك فخراً ليوم الوداع
أراكم جميعاً صدًى واحداً   رجالاً ... ألا بل قبيل السباع !
إذا نلتمُ اليوم ما تشتهون   فماذا يهم إذا البؤسِ شاع
بلوتُ بقومك ختل الرجال   بقيصر ... يومي ... ولؤمَ الطباع
وما أنتَ غير فتىً عابثٍ

أنطونيو (مندفعاً)   لأُقسم بالربّ

كليوباترا (مقاطعة)   يا للخداع ! (ثم تنفجر باكية)

ترفع رأسها وعيناها مبللتان بالدموع .. تناجي

ربِّ حُمّلتُ بثقلين   أتُضنيني بعرشين ؟ !
أما يكفي ليَ الوادي   فأرعاه بعينين
وأكفل أهله أمناً   وعدلاً ملء شطين
وكم كلّت بحمله   سواعدُ ذات بأسين

فكيف اذا قضى قدرٌ   بحب جاء كالحَيْن
لَعرشُ الحب يُثقلني   فويلي ! . . . ثقل عرشين ؟!

أنطونيو (بحزن بالغ)

مليكة القلب إصغي لي . لكم نزفت   سُمر القواضب سحًّا من دمي القاني
بحق حبكِ لم أشعر لها ألماً   وقع الجراح ... وعاه الآن وجداني !
كم كنتُ أضحك من جرحي قد انبثقت   منه الدماء فهالكِ الآن أحزاني
مُري أطعكِ ... كعبدٍ ضمه كرمٌ   من سيدٍ ... أشترى بالذل هكراني .
روما وداعاً .. فعرش الحب مملكتي   قرب الحبيب هنا خُلدي ورضواني !

كليوباترا (بعد لحظة ـ بتفكير)

وماذا يقولون ؟ هل ينصفون ؟   وهل يعلمون جراح الجوى ؟
فمن قائلٍ ... عابثٌ راقه   لذيذ العناق وشرب الطلا
فعند المساء حليف المجون   وعند الصباح حليف الضنى
ومن راح ينهش عِرضي غداً   بقولٍ يفوق طعان الظبا

أنطونيو : فماذا تريدين ؟ إني هنا   رهينٌ بأمر ملاك العلا
اذا شئتِ أنتِ فقد أُطفئت   بروما سنا فتنات اللظى
وعاد النظام إلى ربعها   وعدتُ إلى معبدي المرتجى !

كليوباترا   أتحفظ في البعد عهد الغرام ؟
أنطونيو —   كما يحفظ الروح مرءاً حواه !

كليوباترا — وان جاءك اللوم من عاذلٍ
أنطونيو —   أُغلق سمعي وأحطم فاه
كليوباترا — وترعى مواثيق قد أُبرمتْ   بحر الدموع وهمس الشفاه ؟
أنطونيو   وكيف أخون وذي رجفةٌ   عرتني من العهد. ذكرى صداه ؟

كليوباترا (بارتياح)

جناني استقر ... فللمجد سِر   وعد بالفخار رماك الآله (يتعانقان)

ع ١١٢

باب الأخبار العلمية

مستقبل صناعة التعدين في مصر

ألقى الأستاذ هولمان محاضرة في الشهر الماضي عنوانها « مستقبل صناعة التعدين في مصر » في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية في القاهرة وقد رأينا أن نجمل هذه المحاضرة لأنها كبيرة الشأن . قال المحاضر :

تفاوتت الآراء في شأن مدى احتواء التربة المصرية على المعادن ، فمن قائل إن الشيء الوحيد الذي تدره التربة المصرية هو الحفريات والهياكل العظمية المتخلفة من قدماء المصريين ، ومن قائل إن أرض مصر غنية بالمعادن مكتظة بأنواع ممتازة منها .

والرأي عندي أن أرض مصر تفيض بالمعادن ، واذا غضضنا الطرف عما يمكن أن تنتجه المناجم المصرية في المستقبل فلا يسعنا أن نغفل أن أرض مصر تدر اليوم بترولاً وفوسفات وخام المنجنيز والطلق والحجر الجيري والجبس وحجر البازلت والرخام ورخام المرمر ورمل الزجاج والطين والملح والصودا وسائر أنواع الأملاح .

وقد استثمرت في مصر معادن الذهب والرصاص والخارصين والقصدير والولفرام والبنتوليت والمغنيزيت والفلورسبار والاليمينيت والباريت والكبريت والأصباغ والكاولين والاسبستوس والشبّه وطينة الدياطومي وحجر الخفاف والرمل الأسود .

أما الرواسب التي كشفت من هذه المعادن ولم تستثمر ولم تعين مواقعها فهي الحديد والنحاس الأحمر والرصاص والخارصين والنيكل والموليبديوم والكروميت والقصدير والولفرام والجرافيت والباريت وعدد من مناجم الذهب القديمة .

والعلة الرئيسية التي حالت دون استنباط هذه المعادن الكثيرة المعروفة هي الافتقار إلى الطرق المفضية الى الأماكن الغنية بالمعادن . ومن ثمّ اقتصر في الوقت الحالي على استغلال المناجم التي تقع إما بالقرب من شاطىء البحر الاحمر أو بالقرب من وادي النيل .

وفي مصر ، عند منطقة القصير ، صحراء جبلية مساحتها آلاف من الأميال المربعة فيها حجارة نارية متخلفة من أحقاب قديمة وتحتوي على رواسب معدنية ذات شأن اقتصادي . وقد بقيت هذه المنطقة حتى الآن على فطرتها ولم ينقب فيها عالم ولم تمسح مسحاً جغرافيًّا جيولوجيًّا لصعوبة السير فيها وتعذر الحصول على ماء يشربه المنقبون والمهندسون .

وفي صحراء سينا مناطق كبيرة غنية بالمواد المعدنية النفيسة ، وعلى هذه المنطقة وعلى سابقتها يعلق العلماء الأمل في انشاء صناعة معدنية كبيرة في مصر تعم بخيرها الشرق الأوسط بأسره وقد تتجاوزه الى سواه .

وقال الأستاذ هولمان إن الخطوة الأولى التي يتعين على المسؤولين خطوها تمهيداً لاستغلال هذه الثروة المعدنية الطبيعية هي مد الطرق إلى المناطق المعدنية ووضع خارطات جيولوجية دقيقة لها والشروع بعد ذلك في التنقيب عن المعادن وعن الماء . وفي وسعي القول إن الماء يوجد على الأرجح إذا بحث عنه بكيفية منتظمة والتجارب السابقة تدل على أن هذا أمر ميسور قريب المنال . وعلى الحكومة كذلك أن تدرب طائفة من المهندسين والملاحظين على شؤون التنقيب عن المعادن لتستطيع الاستعانة بهم في استغلال ثروة مصر المعدنية .

وأضاف الأستاذ هولمان إلى ما تقدم ان على شواطىء البحرين الأحمر والمتوسط رواسب وفيرة من الجبس المتبلور نسبة نقاوته عالية جداً وله في العالم سوق رائجة واستغلال هذا المعدن أمرٌ يسير إذا نشطت العزائم وشُمِّر عن السواعد .

أما الملح وأكسيد الحديد والفوسفات فهي منتجات يزيد ما يوجد فيها في البلاد على حاجتها، وإذا استنبطت أمكن إصدارها إلى الخارج والانتفاع بالثمن المكتسب من بيعها في تمويل المشروعات القومية الأخرى .

وختم الأستاذ هولمان محاضرته قائلاً إن من خطل الرأي الذهاب في موضوع ثروة مصر المعدنية مذهب المترددين المتشائمين الذين يرون أن « المومياء » هي المعدن الوحيد الذي تغلّه أرض مصر . فالواقع كما سلف تبيانه ان مصر غنية بالمعادن وينتظرها مستقبل مشرق إذا اهتبلت الفرصة وعجلت باستنباط ثروتها الدفينة .

دواء جديد لمعالجة السعال الديكي

كشف في بريطانيا أخيراً دواء جديد لمعالجة السعال الديكي والمعروف أنه حتى الآن لم يظهر علاج فعّال لهذا المرض الخبيث الذى طالما سبّب عدداً لايستهان به من الوفيات بين الأطفال .

وجاء هذا الدواء الجديد وقد أطلق عليه اسم « أروسبورين » بنتائج مرضية للغاية عقب تجربته على الحيوانات . ومن أهم مزاياه سهولة إعداده وعدم قابليته للتلف عند حفظه في المخازن . والمادة التي اكتشف منها هذا الدواء الجديد استخرجت من تربة حديقة بمقاطعة سوراي في انجلترا .

وديع فلسطين

مكتبة المقتطف

١ — حضارات الهند

تأليف غوستاف لوبون — ترجمة الاستاذ عادل زعيتر — ٧٣٢ صفحة من الحجم الكبير
مطبعة عيسى البابي الحلبي

لله درّ من قال : الهند من آسيا قلبها النابض . فهي كما تبدو على الخارطة شبيهة بالقلب تسري فيها شرايين الحياة من خلال أنهرها وتبدو تجاويفها في وديانها ووهادها ونجادها ، وتنبض فيها الحياة في مصانعها وحقولها ، وتنبت منها الفلسفات والديانات فتغزو بقية القارة الآسيوية .

فالهند شعب ، أو إن شئت الصواب خليط من شعوب ، انتظمته بلاد مترامية الأطراف عرضاً ، شاهقة الجبال علوًّا ، أسبغت عليها الطبيعة من صورها شتى ، ووهبتها من ضروب الطقس والمناخ ألواناً ، وأجرت فيها من الحيوان المستأنس والوحشي ما لا يكاد يقع في نطاق حصر ، وتعاورتها من الحضارات صنوف تباينت مظاهرها وأسهمت في أحداث التاريخ بقسط كبير لعراقتها ووفرة خيرها وغنى أرضها وخصب تفكير أبنائها .

هذه القارة التي تجد فيها بيضاً وسوداً ، جبالاً يكلل هاماتها الثلج ، وبقاعاً يفترسها لظى الحر ، مصانع تدار بالحديث من الآلات ، وحقولاً تروى وتزرع بالفطرة والبداوة .

هذه القارة الفاتنة وجدت في الكاتب الفرنسي الكبير الدكتور غوستاف لوبون صديقاً كبيراً وعالماً شدته اليها كنوزها الأدبية والتاريخية ، فعكف على العناية بدرس شؤونها الجغرافية والتاريخية والأدبية والفلسفية والدينية والأثنولوجية والبيولوجية والنباتية والفنية والمعمارية والعلمية والخلقية دراسة محكمة الأركان ، دقيقة الجوانب ، فسيحة المجال ، لا رائد لها إلاّ الصدق والاصالة والاخلاص ، فاستطاع هذا العالم الفذّ أن يجمع أطراف موضوعه — طريفها وتالدها — في سفر نفيس جليل سيبقى على الدهر خالداً

ذاكراً للدكتور لوبون فضله الذي أسداه للهند وأثره الذي تزيده الايام قدراً ومقاماً .

فكتاب « حضارات الهند » كتاب جعل من الموضوعات الجغرافية والتاريخية وما يتصل بها ، أدباً صرفاً يخضع لجمال الأسلوب وحسن الرواية وطرافة العرض ، تقرأه على ضخامته فلا ترى نفسك إلاّ وقد غدوت معجباً بالهند وأهليها ، ملمّاً بحضاراتها وفلسفاتها ، مفتوناً بالدكتور لوبون رجل القلم والعقل والوجدان .

وإذا كنّا قد أجزلنا للدكتور لوبون ثناءً موفوراً وأطرينا عملاً جليلاً يصحّ أن ينعت بأنه « كتاب العمر » — وإن كان لوبون أصدر كتباً أخرى يصحّ أن يخلد كل سفرٍ منها ذكرى صاحبه — فانّ مثل هذا الثناء وزيداً عليه ينبغي أن يوجه الى الأديب الكبير العلامة الفلسطيني الأستاذ عادل زعيتر . فقد انبرى هذا الكاتب الممكّن لكتاب « حضارات الهند » ومضى يترجمه معتزلاً الدنيا وأناسيها ، آسراً نفسه في حجرةٍ وحيداً واستطاع بعد جهادٍ طويل اشترك فيه الذهن والعينان والأعصاب والحواسّ بأسرها ، أن ينهي هذا العمل الجبار ، ويذلّ شوكة الترجمة ويخضع هذا الكتاب الفرنسي لإمرة اللغة العربية ، ويجعل من السفر العربي ندّاً لقرينه الفرنسي ، لا يقلّ عنه دقة ولا أمانة ولا إخلاصاً ولا روعة عرض ولا بياناً ، فتغنم لغة الضاد بصدوره مصنفاً فريداً يشهد للأستاذ زعيتر بعبقريةٍ في فنّ الترجمة وبجلدٍ على مراس هذا الفرع المضني من فروع الأدب

وكلمة حقٍ لا يسعني إلاّ أن أقولها — غير متأثر بعوامل الصداقة التي تربطني بعادل بك زعيتر — وهي أن الأستاذ الكبير عادل بك أسدى بترجمة هذا السفر وما سبقه من أسفار كثار ، مآثر لا تنسى للغة الضاد ، فقد غذّاها بمكتبة بقضّها وقضيضها تمتاز بنفاستها وتعدّ ذخيرة ذات تفرّد ما كان يمكن لفردٍ أن يأتيها لو لم تجتمع له عوامل التفاني العلمي والهواية المفرطة والتضحية غير المحدودة ، والصبر الطويل . وحسبي أن أذكر في هذا الصدد أن « عناد » الأستاذ زعيتر — ولا أجد كلمة تعبّر عن مقصدي أبلغ من كلمة « عناد » — كاد يكلفه حياته مرتين ، فقد تعرض في أثناء نهوضه بترجمة هذا السفر لأزمتين في القلب في يومين متتاليين لم ينقذه منهما سوى مرحمة إلٓهية ومكرمة من ربّ الكون .

ولا أحسب أن كلمة ثناء مني — مهما سخوت في صوغها — بقادرة على أن تفي الأستاذ زعيتر ببعضٍ مما يستأهله بحق من تقدير واطراء ، لأن هذا الصرح الشامخ مما ينبغي أن يلقى هذا الثناء وهذا التقدير من شعوب وأجيال لا من أفراد وآحاد

٢ — تجديد العربية

بحيث تصبح وافية بمطالب العلوم والفنون

للاستاذ اسماعيل مظهر — ٨٠ صفحة من الحجم المتوسط — مكتبة النهضة المصرية

هذا كتاب في صفحات قليلة ولكنه كتاب خليق بالدرس والإمعان في المراجعة.

فالأستاذ اسماعيل مظهر يروم أن يذلل أمام اللغة العربية كلمات الاعاجم التي يتداولها رجال العلم، حتى يصبح لكل اصطلاح علمي غربي مرادف له في اللغة العربية، تكتمل له صفات: سهولة النطق وأداء المعنى من أيسر طريق وأقربه، وقلة عدد الأحرف

ويدعو الأستاذ مظهر إلى تغذية اللغة العربية بكل ما من شأنه أن يجعلها وافية بمقتضيات العلوم والفنون، قائلاً بنحت الكلمات إذا كان النحت مفيداً، وبالتعريب اذا تبين أنه أسلم سبيل، وبالاقتياس (وهذه كلمة من ابتداعه) إذا أدّى المرام، وبالتركيب المزجي إذا سلس أمامه الطريق.

وهناك من يعترضون على هذا المنهج الجديد الذي طلع به الأستاذ مظهر في كتابه «تجديد العربية» فيذهب بعضهم إلى مجافاة كل ما لم يرد في القواميس والمعجمات ونبذ كل ما لم تذكره أمهات الكتب العربية القديمة، ولكن الأستاذ مظهر يردّ عليهم بقوله ان العرب — حتى أوضعهم ثقافة وأقربهم الى الفطرة — ابتدعوا كلمات عربية بالنحت والتعريب، فكيف نبيح لهؤلاء شيئاً ونحرمه على أنفسنا في عصر تعين علينا فيه أن نواجه مطالب العلوم والفنون الحديثة، فاللغة العربية — على حدّ قوله — ملك للذين ينطقون بها ويؤدون بها أغراضهم فلا ينبغي أن نجعل حولها حرمة تنعتها بالجمود والتبلد. اللغة العربية غنية بالأصول، وقد لا تعدلها في اللغات لغة لها مثل اتساعها وشمولها، فلمَ نضيق على أنفسنا الخناق ونلزم قوقعة الرجعية.

وقد مثل الأستاذ اسماعيل مظهر لكل طريقة جديدة من طرق تغذية الضاد بالكلمات العلمية بأمثلة كثيرة حالفه التوفيق في جلها. وأعتقد انه إذا فرغ قريباً من اعداد المعجم العلمي الذي وقف على وضعه شطراً كبيراً من جهده ووقته وتفكيره، لكانت هذه الخدمة الأدبية العلمية من خير ما يباهي به عرب القرن العشرين.

والواقع أني حصلت من هذا الكتاب الموجز كثيراً مما كنت أفتقر إليه ولست أدري لمَ لا ينتفع المجمع اللغوي بهذه البحوث الجليلة فهي مما يتفق مع رسالته ويطابق الهدف الذي أنشىء لتحقيقه.

٣ – الجانب الالهي من التفكير الاسلامي

تأليف الدكتور محمد البهي — ٢٩٢ صفحة من الحجم المتوسط — دار احياء الكتب العربية

جميل أن نرى المكتبة الفلسفية العربيـة تزداد في كل يوم نمواً واتساعاً ، فما فتىء المشتغلون بالفلسفة يغذونها في كل يوم بزاد وفير ومحصول خصيب .

ومن الذين اشتركوا في النهضة الفلسفية الحديثة الأستاذ الدكتور محمد البهي أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين فأصدر كتاباً في جزأين عن « الجانب الإلهي من التفكير الاسلامي » يتضمن تحليلاً وافياً للفلسفة عند المسلمين وتأثرهم بفلسفة الاغريق واتساع أفق تفكيرهم لقبول الفلسفة إلى جانب الدين بحيث لا يبين تعارض بين الاثنين ، ولا يحجب أحدهما الآخر .

ومزيّة هذا الكتاب أنه مدوّن بقلم أستاذ قدير درس الفلسفة في المانيا وتضلع من فروعها . فأتاحت له معارفه هذه ، ومطالعاته لآراء الغربيين الذين كتبوا عن فلاسفة المسلمين ، أن يحسن الردّ على تلك الآراء إذا أنس منها مجافاة للحقيقة أو انحرافاً عن القصد .

ولست أكتم عن الدكتور البهي أني كنت أتعثر كثيراً في تلاوة كتابه هذا وما أدري أيرجع هذا إلى قصور في ثقافتي الفلسفية – وهي لاريب قاصرة – أم إلى إبهام في بعض فصول الكتاب مع جزالة ما استخدم فيه من كلمات . وللتمثيل أسرد الفقرة التالية من الكتاب :

« ووجود العالم ، إذا كان أصله الامكان ، وكان هذا الوجود طارئاً عليه وليس ذاتيـاً له ، معناه إذن تحقيق « ماهياته » (أنواعه) وصيرورتهـا « هويات » بفعل ما وجوده على سبيل الحقيقة من ذاته ، وهو واجب الوجود » (١)

فهذه العبارة – ولها شبيهات كثيرة – مؤلفة من كلمات سهلة يسيرة مفهومة . ولكن تركيبها معاً – بحسب ظني – فيه اضطراب يجعل المعنى ينبهم على القارىء ويضيع بين أطواء الأسطر .

والدكتور البهي يعالج في سفره هذا موضوعاً خاصـاً ، لا عامـاً ، وهو « الجانب الالهي من التفكير الاسلامي » ولـكنه مع ذلك وجد متسع البحث أمامه فسيحاً يستوعب مجلدين من كتاب صفحاته تزيد على ست مئة ويعد قراءه بأن يتحفهم بمجلد ثالث يتناول موقف رجال التصوف ورجال الاعتزال والأشاعرة من علماء الـكلام .

وفي الختام يخلق بنا أن نعرب عن اغتباطنا لتقدم نهضة الفلسفة في مصر تقدماً يشجع أمثال الدكتور البهي على التوفر على درسها والتأليف فيها ، ولن يمضي باذن الله وقت طويل حتى يكون في مصر فلاسفـة معاصرون ذوو مذاهب فكرية جديدة تتردّد أصداؤها في الغرب والشرق ويتجاوب ترجيعها في ربوع العالم .

وديع فلسطين

---

(١) ص ٧٩

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثاني عشر بعد المئة

٢٤١ التكافل الاشتراكي — نظرية ما في النظام الاجتماعي : اسماعيل مظهر
٢٤٥ تجارب (قصة) : محمد عبد الحليم عبد الله
٢٤٩ نظرات في النفس والحياة : ع . ش
٢٥٧ تلازم القلب والعقل : من كتاب « هذه هي الأغلال » لعبد الله علي القصيمي
٢٥٨ سياسة الارشاد الاجتماعي : جمال الدين حمدي
٢٦٢ عقار يشفي الطاعون منذ ٣٠٠ سنة
٢٦٣ في التربية — الدوافع الفطرية الخاصة : محمود حامد شوكت
٢٦٨ في اتلانك ستي (قصيدة) : أحمد زكي أبو شادي
٢٦٩ خصائص الفن الاسلامي : محمد رجب البيلي
٢٧٤ أنطون الجميل : محمد عبد الغني حسن
٢٨١ حافظ وشوقي : حسن كامل الصيرفي
٢٩١ قلبي يناديك (قصيدة) : مفيد الشوباشي
٢٩٢ جناية الآباء (قصة) : جورج نيقولاوس
٣٠٢ طفلتها (قصيدة) : نزار قباني
٣٠٣ الكساحة — أسبابها أعراضها — علاجها : الدكتور عبده رزق
٣١١ مشهد من مسرحية كليوبترا : محمد فهمي
٣١٤ باب الاخبار العلمية ٭ مستقبل صناعة التعدين في مصر — دواء جديد لمعالجة السعال الديكي : وديع فلسطين
٣١٦ مكتبة المقتطف ٭ حضارات الهند (٢) تجديد العربية (٣) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي : وديع فلسطين

٣ — لحق المقتطف

١٠٩ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث : بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي